رواية

حريق فوق رأس أمي

بقلم

مـــــروة التجاني

بطاقة فهرسة

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : **حريق فوق رأس أمي**

المـــــــؤلفة : مروة التجاني

رقــم الإيداع : 22378/ 2018م

الترقيم الدولي: 978-977-834-095-8

الطبعة الأولى 2018

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميـدان حليـم خلـف بنـك فيصـل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

الإهداء

إلى صديقي الراحل :

أونور هاشم .....

والرائعين الذين بلا ذاكرة .

مروة

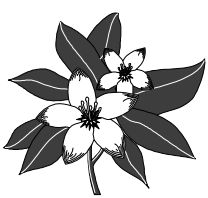

طويلاً

كان في الزنزانة

هذا الهارب

كان يخشى عصا السجان :

مفزوعاً يأخذ الآن طريقه

بكل شئ يتعثر ... بظل العصا يتعثر .

نيتشة

أخبار الحريق

جئت إلى السودان أبحث عن تفاصيل حكاية أمي . أحمل داخل حقيبة السفر قصص قديمة وملامح متخيلة عنها ، لم أعرفها طوال حياتي ولا يكفي كلام قليل لمعرفة حقيقة ما جرى لها لذا جئت أتقصى أخبارها وأعرف موقع القبر الذي ترقد فيه . مات والدي بعد أن حكى لي قصة حب دارت أحداثها بين مدينتي الفاشر والخرطوم وجبل مرة بولاية دارفور وكانت منذ زمن بعيد حديث جميع أهالي المنطقة . ضاع وجه أمي في زحام التفاصيل والشخوص وسنوات المجاعة والحرب والثورة . ها أنا اليوم أصل إلى مدينة الخرطوم وبيدي عناوين وأرقام أهل والدي وعدد من الأفراد الذين كانوا يعرفون والدتي . مكثت في بيوت مختلفة وسمعت حكايات كثيرة من هذا وذاك بعضها أعرفها والبعض الآخر كان أقرب إلى أساطير الخيال . اتقصى سيرة أمي في الكلام ، والمطر ، والغيوم ، والالوان .

حكى بعضهم عن رفضهم لقصة الحب التي جمعتها مع أبي من البداية ، والبعض الآخر نسج حولها اساطير وقالوا إنها أجمل حكاية غرام سمعوا عنها . كانت أمي عند الناس خرافة يتحدثون عنها من وحي خيالهم الواسع . يحبها جزء منهم ويغالون في وصف جمالها وأخلاقها . وصفتها عمتي قائلة :

– كانت تشبه المشاوير البعيدة وطيور المساء البيضاء . تشبة وجه قديم تشعر حين تراه بسعادة مفقودة ورغبة في الإمساك بالزمن الماضي .

وحكى آخرين من أقربائي عن الكراهية . قال أحدهم :

– تخيل سماء الليل بلا نجوم والصحراء بدون كثبان الرمل . تخيل مساحة واسعة بلا عشب أخضر . كانت لعنة سرقت النجوم والرمل وعشب الحياة ولوثتها بالدم الأحمر .

اوشكت على الضياع بين التناقضات والروايات المختلفة . كدت أفشل في الوصول إليها لكن شيئاً كان يلوح دائماً في الأفق : الأمل .

في بحر شواطئه بلا عنوان أبحرت ذاكرة أمي ولم تعد من يومها أبداً .

أتفق أهل والدي على إنها كانت مثل صندوق أسود لم يعثر عليه أحد ليفك طلاسم ما حدث قبل الضياع . لفيف من الأسرار والمواقف الغريبة ، المحزنة والمتناقضة تصارعت داخل عقلها . البحر الواسع ابتلع الذاكرة وحملها الموج بهدوء غريب إلى النواحي الخلفية في الدماغ .. هناك تتحطم ، تغدو نثار من ذات . كل ذكرى منسية تعاود الظهور تترك أثرها كالكتابة على عظم أبيض . كل ذكرى تأخذ معها جزء من الروح ، الدموع والإحساس . ثمن باهظ وجب دفعه عند ظهور مقاطع من شريط الحياة الطويل .عند كل محطة توقفت للصراخ بصوت خافت حتى لا تلفت الإنتباه ، غضبت ودارت حول نفسها ، تنفست بسرعة خوفاً من الانفجار الداخلي ، تمنت أن يكتمل انتقامها من العالم ، بكت خلال ليالٍ طويلة ، ضحكت لوحدها في مخيلتها ، ركضت بثبات هرباً من مؤسسة الجيش والشرطة ، توقفت عند المنحدرات . ثم ابتسمت في وداع كل ذكرى .

تعلمت من السنوات نسيان الحسرة وعدم النواح على ما فات . قالت :

ما ذهب مع الوقت لا يمكن أن يعيده إلا الوقت لأنه قدر .-

غرقت مشاعرها منذ زمن بعيد في ذاك البحر العميق . مرت

الذكريات في خيالها مثل حلم شخص غريب ، لطالما وددت لو سألتها :

– كيف تبدو أحلام الآخرين ؟ هل تشبه طريقة العيش معهم ؟ .

أتفقت سجانات يعملن في سجن أمدرمان للنساء على إنها طالما نظرت إلى ذكرياتها دون تفسير إلى أن غابت عن مجال إدراكها ، وعانت صداعاً أفقدها وعيها . غابت عن زمنها الحاضر وخلاياها ترقص على إيقاع الألم ، لا تحمل أدوية طبية لتعالج ألمها ، لا تملك مكونات وصفة شعبية فتحدث نفسها بصوت مسموع أيمكن أن يعود ذاك الزمان حين كانت والدتها تداويها بالعلاج الشعبي وتمسك رأسها بقطعة قماش قوية وتشد بأصابعها عند مقدمة الرأس فيزول الوجع ؟ لكنها لا تملك غير أن تغلق عينيها ببطء . لا تتحرك . تخف آلامها . يتلاشى الوجع إذا نجحت في الدخول إلى حلم مختلف .

قالت سجانة :

– قررت يوماً ما أن السم تفشى في ذاكرتها لأن الشخوص والأماكن والأشياء التي تألفها تغيرت وتبدل حالها . ما كان مضيئاً بالأمس أصبح في حاضرها ذكرى سيئة ومنسية ، قضت الليالي تعاني الأرق و الحزن العميق على فراق من أحبتهم . غدر بها البحر ، لم

يمنحها أسماك ذهبية تلاعبها في عزلتها . هربت إلى عوالم غير موجودة على أمل أن تجد الجنة .لكن لأمك أكثر من ذاكرة. تخبئ في كل واحدة كنوزها ، الآمها وفضائحها السرية. بعد كل صدمة ، حدث ، كلمة أو مشهد تعيد تشكيل ذاكرتها وترتيبها من جديد . تنسى بعض الوقائع في أحيان كثيرة أو تخبئها في الأعماق لتمنعها من العودة إلى محيط عقلها . ما تظن إنه خامد في النسيان كان يعاود الظهور بين الحين والآخر حيث تقودها التفاصيل الصغيرة إلى أيام منسية لتعيش ذات التجارب القديمة في مخيلتها .

تحسر أحدهم عليها ووصف حالها قائلاً :

– لا مجال للهرب من ماضي يبذل جهده لمطاردتها في نهاية الأمر تمكن منها وأصاب ذاكرتها بالعطب . توجعت وتسممت بالأحداث . تشبه مستودع ملئ بجثث حيوانات نافقة ، تكاد في أوقات عذابها أن تتقئ فيل ميت ، تقيأت ذات ليلة سبعون سنجاباً ميتاً . بنهاية الأمر استسلمت وواجهت كل خبرتها عن العالم الخارجي بشجاعة دفعت لاحقاً ثمنها غالياً بأن تقزم دماغها وتلاشى.

قالواعنها :

– جاءت الهزيمة بعد محاولات عدة للنجاح في الحياة . كثيراً ما

سألت نفسها ماذا يكون النجاح إذاً إن لم يكن هو محاولة مستمرة للنجاة ، تنجو من حريق ، إعاقة ، أذى أو إهانة ، يكفي أن تظل على قيد الحياة ، هكذا حارب أسلاف البشر حياتهم سلاسل محاولات تتأرجح بين النجاح والفشل وما بينهما تتجلى إنسانيتهم ، قوتهم ، قسوتهم وأخلاقهم .

وصفتها سيدة تعرفت عليها بالقول :

– تخلت يوماً عن كل شئ وهي تدرك أن كل ما تملكه في الدنيا : حزنها ، خضوعها ، أحلامها ، جسدها ، ضحكها وبؤسها سقط منها رويداً رويداً ، تخلت إذن عن ظلال لأشياء كانت تظن إنها تملكها ، شأنها في ذلك شأن المساكين حين يدركون أن أثمن ما يملكون لا يساوي شيئاً في سوق الحياة فيتخلون طوعاً عن ممتلكاتهم المتواضعة مع ابتسامة رضا تخفي دلائل الانكسار .

قالت سجانة تعمل في مصحة كوبر للأمراض النفسية والعقلية :

– عاشت سنواتها الأخيرة في هدوء وسلام . لانعرف كلامها ولا نفهم حديثها لكنها تركت أثراً عظيماً في نفوسنا . رحلت بلا وصية وكأنها لم توجد في الدنيا .هي ظل يمر في ليل حالك السواد ويحسب أن أعين العابرين ترصده لكن لايوجد شخص يرى تفاصيل الليل المظلم .

لم يتبقى منها بعد الرحيل غير صورة وحيدة وقديمة في أرشيف سجلات السجن سعيت جاهداً للحصول عليها لكن إدارة السجن رفضت . تعاملت مع الصورة وكأنها ملك للسجن وجزء من تاريخه.

أمي خرافة بأذهان من يعرفها . هناك من يدافع عنها ويهاجمها في ذات الوقت ، توزعت مشاعر الناس عنها بين الحب والكراهية . كانت الحقيقة الوحيدة عنها هي أنا : وهبتني الحزن وعينان بلون الخريف .

طال تجوالي بين منازل الأهل وسجن النساء ومصحة كوبر . سألت عنها كل شخص صادفته إلى أن قادني الدرب بعد أشهر من البحث إلى صامويل بيتر .

عند زاوية باردة في السوق العربي وجدته جالساً مع مجموعة صغيرة من الرجال الجنوبيين يشربون القهوة والشاي ، كانوا يجلسون في حلقة دائرية تحت دكان ملابس قديم. تقدمت وسألت عنه بالاسم فأجابني بصوت هادئ :

– وصلت يا أبني . أنا من تبحث عنه .

رجل وقور تجاوز عمره الأربعين ، ذو شعر أبيض ولون أسود داكن وملامح تشبه أهل جنوب السودان ، عيناه صغيرة وأنفه واسع

كأنه يمتص هواء مدينة الخرطوم كله ، يضع نظارات سميكة وقبعه تخفي مقدمة الرأس ، يرتدي زياً ملئ بالألوان والأشكال الزاهية يدل على جذوره الأفريقية . وخلف هذا الوجه الهادئ وجدت القصة الكاملة .

بعد أن استأذن من زملاءه جلس معي في زواية أخرى هادئة إلى حد ما ، المارة بالكاد يسترقون النظر إلينا وقبل أن أكمل فنجان القهوة دخل الفرح إلى قلبي حين قال إنه يعرف كيف قضت أمي السبع سنوات داخل السجن . كنت أستمع بكل حواسي إلى أن انقضى النهار كله .

***

تستيقظ منذ الساعات الأولى للفجر ، للمساجين مواقيت خاصة والسجون عندما تدق اجراسها لايوجد شخص يسمعها . المدينة بالخارج لاتزال غارقة في كوابيسها وأنفاس العساكر تحرسها . تسمع شخيرها وتقلباتها من ثقب صغير كانت تظن أن صرصار عجوز يسكنه ، عبر هذا الثقب السري صار لها نافذة إلى الخارج ، استمعت من خلاله لفترة من الزمن إلى ضوضاء لم تميزها جيداً لكن سجانة اكتشفت سرها الصغير . في اليوم التالي كانت أكوام أسمنت مرصوفة بعشوائية تسد الثقب ومنفذها إلى العالم ، تظاهرت إنها لا تعرف شيئاً

لكن الأمر بالنسبة لها كان مثل سد حلقها وحرمانها من الأكسجين والكلام .

تعرف إنها لا تزور أحداً في أحلامه ولا يزورها أي من سكان البلد ، لاتعرف وجوه أهل المدينة ولا تعرف التغيرات التي طرأت على شكل البلاد . غرباء عنها لكنها تعرف إنهم موجودين ولهم حيواتهم . تسأل غيوم الفجر عن سماتهم وكيف يبدون ؟ تقول :

– هل يعلمون بأمري ؟ من منهم سيأتي لزيارتي اليوم ؟ هل أعني لهم شيئاً ؟ .

لم تعد تعرف شيئاً عن البلاد غير أخبار متفرقة تذيعها زقزقة الطيور وألسنة دخان أسود تراه بعض الأحيان يتصاعد عالياً متجاوزاً الأسوار الضخمة ، ترى دخان الحرائق يتصاعد فوق رأسها ، يخنقها لكنها تتسلى بهوكيف لا تفرح وهو خيط اتصالها بالعالم الخارجي . تسأل :

– ماذا تغير هناك ؟ أين موقعي من خريطة المدينة الكبيرة ؟ .

لا يجيبها قمر الليل الخافت بل يرحل كأن الإجابة تؤلمه أو لا تعنيه . تستودع تقاسيم وجهها لآخر نجمة تغادر السماء . تأتمنها على أمانيها ومستقبلها المجهول . تخبرها النجمة الأخيرة أن الغد

سيكون مختلفاً وحلواً ، تضاحكها وتغيب على وعد باللقاء في أرض الحرية ، آه من كلمة الحرية ، لا يعرف حقيقتها إلا من جرب السجن وأختبره . هل تعني الحرية الوطن ؟ هل هي المساحات الواسعة ؟ هل تعني حرية التنقل بعيداً عن أعين السجان ؟ هي كلمة واسعة وجميلة بقدر جمال وجه مريم .

منذ يومها الأول وإلى آوان رحيلها الأخير لم تحظى بليل وظلام كامل فالمصابيح لا تنطفئ داخل العنابر ليلاً وساحة السجن تضاء بكشافات ذات ضوء مصطنع ، كل وقتها نهار وشموس لاتغيب . مع ذلك كان الظلام يسكنها ، تتحدث بحروف سوداء وميتة ، للمساجين لغة يفهمونها لوحدهم ، لا حديث لهم إلا عن الحرية وأزمنة الأمل الموعودة . منذ تواجدها في هذا الحيز الضيق ما عاد لكلامها معنى ، سقط حديثها وخطابها وسقطت بالتالي حريتها . حينما يحاول أحدهم أن يمكث لفترة في غرفة مظلمة فذلك لأنه يشعر بالعار من ذاته ، يتهيأ له إنه منسي ولاوجود له في العالم ، يظن إنه كائن لايزال في العدم أو رحم الأم ، لم يتخلق بعد ويأتي إلى الوجود . في السجن لم يسمح لها أن تحظى بالعتمة لتداري هويتها وتنفصل عنها في الخفاء . يقولون إن الظلام سئ للسجين لأنه يشعر بالحزن ، لكن قليل من الليل لابأس به لأن الأحلام كانت لاتزورها إلا ليلاً وهي منذ غاب عنها الظلام لم تحلم. مكثت تحت ضوء كان

الغرض منه أن يقول لكل سجين :

– أنت مرئي . مكشوف للعالم . لا عـورة لـك ، وهويتـك ملـك للكل .

فقدت لذة الكسل والبقاء في الفراش لدقائق طويلة قبل النهوض . هي وغيرها من النسوة عبارة عن أشياء بالنسبة للسجانات وعليهن أن يغتالوا كل ما يمت للطبيعـة البشـرية بصـلة ليحظـوا بإستحسـان السجانات .لا يسمح بالكسل في السجن ، هو عبارة عن نظام صـارم من الأوامر التي تنتجها السلطة وبذلك تعيـد تشـكيل الفـرد حسـب هواها ومزاجها . تريدها كل سجانة أن تغدو ماكينة أو هكذا تحولت في آخر الأمر وفقاً لنظام السجن الصعب . تكـاد تحفـظ ملامـح كـل شمس تولد في السماء ، فلا تعود ترى غرائب الشـروق . لا عصـافير تأتي لتقبيل خدها ..

مات بداخلها الصباح .

أول عام لها في السجن كانت حكومة الإنقـاذ الجديـدة مشـغولة بترتيب وضع البلاد وقمع المعارضين وشرطة السجون آنذاك كانت في قمة قسوتها وعجرفتها . حدث أن اعتقلـت نسـاء سياسـيات عـلى خلفية مظاهرة تندد بغلاء الاسعار وكبت الحريات ، كـنَّ سـتة نسـاء معتقلات تم تـرحيلهن إلى سـجن النسـاء ووضـعوا في عنبـر خـاص

تحت اشراف جهاز الأمن والمخابرات إلى أجل غير مسمى . وقتها تشاجرت مريم مع سجينة أخرى واشفقت عليها سجانة من دخول الزنزانة والمكوث فيها لأسابيع من أجل حدث عابر وخصام أنتهى قبل أن يبدأ ، طلبت السجانة من النساء السياسيات دخول مريم معهن إلى العنبر لعدة أيام لكن رفضن بشدة وصاحت سيدة :

– نحن نساء محترمات لن نجلس مع قتلة ولصوص .

وقالت معتقلة بغضب :

– تريد الحكومة أن تذلنا وتضعنا مع نساء وضيعات لانعرف لهن أصل .

تراجعت السجانة عن قرارها وتم حبس مريم في زنزانة لمدة أسبوع ، يومها بكت بشدة ، طوال الليل وهي تبكي وتتنهد ، كانت الدموع تنزل مثل المطر في الخريف . وبعدها مسحت وجهها بالماء ولم تبكي لبقية حياتها . إذا تعرضت للضرب أو الصفع لاتنزل منها دموع ، نزلت كلها في ليلة البكاء الطويلة .

لن تعود مريم للبكاء مرة أخرى .

***

تتهيأ مثل بقية النزيلات ليوم جديد يبدأ بالصياح والطرق على

الأبواب الحديدية دون سابق انذار . تصرخ السجانات في وقت واحد « استيقظي » « استيقظن » أصواتهن مثل كرنفال شعبي يتزامن مع عزف المفاتيح التي تتمايل مع حركة أجسادهن . صوت تعودت عليه ، أدمنته ، تتعرف على الوقت والواجب من خلاله ، يصيب الرأس والقلب بجرح عميق . السجانات : هنَّ نساء لا يعرفن إلا القسوة والصوت العالي ، تدربن على ذلك لأنه يثير الفزع في النفوس، يتشابهن في ملابسهن وأزيائهن وملامحهن وطريقة حديثهن ، لايقدسن في الحياة غير احذيتهن لأن عقولهن تشبهها ولذلك تجدها دائماً لامعة ونظيفة . لم تعد تسمي صوت الضرب على الحديد ازعاج بل لحن ذا إيقاع واحد . هكذا تحايلت على أذنها وأوهمتها إنها موسيقى عظيمة طالما هي موجودة في إيقاع الكون فلابد إنها أنغام حديثة . هل تساءلت يوماً إن كان استمرار هذا الصوت يؤثر في أعصابها ويغتال حاسة السمع ؟ ربما لم تكن تهتم بمعرفة الإجابة .

قرأت عبارةللشاعر الروسي فلاديمير مایاكوفسكي تقول : حيثما أموت .. سأموت وأنا أغني ، أخذتني هذه الجملة إلى حياة مريمفي السجن ، حياة بدون موسيقى وبدون ألحان أو غناء . هكذا عاشت في تجميع الأصوات القليلة من حولها لتشكل منها سيمفونية تبرر بها وجودها ، نزول المطر يعتبر حدث جلل بالنسبة للمسجونات يفرحن به عند الخريف ، تتأمله من خلف نوافذ

الحديد بسعادة تسري مع دمها ، تعيد ذكراه إلى مخيلتها منظر الحقول الخضراء في قريتها بولاية الجزيرة حينما كان والدها يعمل في استثمار الأراضي الزراعية والأطفال يلعبون تحت المطر دون خوف من البلل . تتمنى لو تركض إلى ساحة السجن الفارغة وتلعب على نغماته ، تمنت لو رقصت ودارت مثل الدراويش ليغمرها بمحبة باذخة لكن وجود السجانات ، والحديد ، والأبواب الموصدة يمنعها . كل شئ في الطبيعة هو موسيقى رائعة : أشعة الشمس وهي ترسل الحرارة إلى الأجساد . الغيوم وهي تغطي السماء الزرقاء . القمر وضوء النجوم الخافت . تخبرنا الموسيقى بقصص جميلة وتسرق القلب لساعات من ظلمات السجن .

في أوقات الفراغ تدندن بأغنيات وأناشيد قديمة فلا تتعرف بقية النزيلات على ما تقول . يتسألون في حيرة وابتسامة تعلو وجوههن :

– ما هذه الأغاني الغريبة والجميلة ؟ لم نسمعها من قبل لكنها مع ذلك جميلة وذات معنى .

تجيب أكبر النزيلات سناً :

–كانت الفتيات ينشدنها في الماضي البعيد . هذه السيدة مضى على وجودها هنا أعوام عديدة فلا تحفظ غيرها ، توقفت ذاكرتها في نقطة محددة وعند زمان واحد .

ترد نزيلة أخرى :

-لكنها اندثرت حالياً وما عاد أحد يعرفها . تعالي يا خالة لأعلمك أغاني هذا الزمان .

تلتصق بها لتسمعها ماهو جديد وتغني لها بصوت خافت أغاني لاتعرفها . تستمع إليها في صمت وتقول عند إنتهاء كل أغنية :

- جيد .. ممتازة . رددیها لي لأحفظها .

من هنا اتسعت ذاكرتها لحفظ الأغاني القديمة والجديدة . كانت تحفظ الفرح والأمل لتبقى على قيد الحياة .

كل مؤسسة لها أغانيها الخاصة إلا السجون . الموسيقى فيها محرمة وممنوعة . يحدث في بعض الليالي أن تجتمع المسجونات ويصدح صوتهن بالنغم أو تسليهن مسجونة بصوت عذب وتنشد أغنية في محراب النيل للفنان عثمان حسين :

- أنت يا نيل يا سليل الفراديس

نبيل . موفق . في مسابك

ملء أوفاضك الجلال فمرحى

بالجلال المفيض من انسابك

حضنتك الأملاك في جنة الخلد .

أو يرقصن على واحدة من أغاني البنات :

- جيب لي معاك عريس شرطاً يكون لبيس ومن هيئة التدريس .

:إذا حدث وسمعتهن سجانة فأنهن يعاقبن وتهددهن قائلة

-ده الفالحات فيهو الغناء والرقيص وقلة الأدب . يا ما متربيات . يا صعاليق .

صرن ينشدن بصوت خافت وغير مسموع . ثم صارت كل واحدة تدندن مع نفسها دون أن تسمع جارتها شيئاً مما تقول. ثم ضاعت كلمات الأغاني داخل الصمت الكبير الذي يسكن الجدران الحزينة .

خلال عام كامل يقيم السجن حفلاً واحداً . تقاد المسجونات إليه مثل الماشية في طابور طويل . يأتي إليهنَّ خبر الحفل مثل الأمر والواجب يحتم عليهن تفيذ الحضور للحفل . هكذا كنَّ يعرفن بشأنه ويكون الإستعداد مائة بالمائة وبالكاد يسمح لهنَّ بالخروج من العنابر . وفي بعض الأعوام لم تكن هناك احتفالات .

أول حفل حضرته مريم لازالت تفاصيله حاضرة في ذاكرتها ، وقفت في صف طويل بين النساء للتحرك إلى الموقع المنشود حيث

تتوزع السجينات على الكراسي أو على الأرض . كنَّ يرتدين ملابس رثة ووجوههن خالية من مساحيق التجميل ، حزينات ولا رغبة لديهن في الذهاب . في ذاك الحفل خرجت إليهن بعد ساعة وأكثر مغنية مغمورة ترتدي ملابس بلون الذهب ووجهها ملئ بالألوان البراقة التي لاتتناسب مع لونها الأسود الغامق وملامحها الغريبة . صدحت بأغاني رخيصة غيرمعروفة وأناشيد الجبهة الإسلامية التي كانت منتشرة في فترة التسعينات . حيت رئيسة السجن وبعض الرائدات بالأسم واهدتهن نشيد جهادي تمايلن على نغماته. تقول كلماته :

– ليش ليش يا مجاهد ما تتقدم للحور والجنة . تكسب وتغنم

لكتاب الله أقرأ وأفهم . قم ليلك باكر كي لا تندم

لكلاشنكوفك والجيم أفهم ، في الرأس تنشينك . لالا ترحم

للقاء أعدائك سرعة أتقدم . لا تهاب الدانة . لا تخشى لغم .

لم تفهم الأناشيد الجديدة ولم تهتم بأخبار الحرب في جنوب البلاد ومع ذلك تصنعت الفرح شأنها في ذلك شأن جميع المسجونات اللآتي كان تركيزهن منصب على هيئة المغنية وملابسها وعطرها النفاذ وحذائها ذو الكعب العالي الذي بالكاد تجيد التحرك به ، كانوا

يفكرون في الحرية وتقليد المغنية عندما يخرجن من الحبس . يبتسمن حتى تظهر أسنانهن إذا وقعت أعينهن بأعين السجانات . يعلم السجن المسجونات كيف يلبسن ويتزين عن طريق النماذج التي يعرضها ويتدخل في تشكيل المزاج وإعادة تعريف مفهوم الجمال ، هو عقوبة تتدخل في تفاصيل حياة الفرد من حيث لا يدري . ينتهي الحفل بلا تصفيق ، لا مرح ، لا ضحك ، حفل نهاري كئيب.

***

بعينيها بقايا من كحل قديم . فشلت أعين النسوة في سرقة جزء منه . لم يمحو الزمن آثاره بقى شاهداً على زمان مزدهر . كانت في الماضي تتزين بالكحل وترسم جوانب عينيها بالقلم الأسود ، عيناها هما أجمل ما تملك ، ذات أهداب طويلة ونظرات بريئة تحمل سلال من القمح . تتعرف على وجهها من خلال وجوه النزيلات ، تدرس ملامحهن بعين خبيرة وتتعلم كيف يبتسمن ؟كيف تذبل أعينهن ؟ وتلاحظ تشقق شفاههن من الجفاف ، عبوسهن عندما يغضبن أو يفكرن. تتابع اختفاء الألق عندما يمضي على واحدة منهن فترة من الزمن داخل السجن ، تراقب بحذر ذبول أنوثتهن بعد أشهر من انقضاء العقاب . لم ترى نفسها في المرآة منذ مدة طويلة وتعرف إنها تغيرت . قالت :

ربما تحولت لرجل . ربما صرت أملك وجه ذئب أو امرأة أخرى .-

لا تعرف شيئاً عما آلت إليه لأن من المحرمات امتلاك مرآة في السجن ، يقولون أن ذلك يمنع النساء من استخدامها في قتل أنفسهن أو أذية بعضهن حال حدوث شجار . لكن السجينات يستخدمن أظافرهن للقتال ووسائل أخرى لاتنفع معها تحذيرات السجانات اللآتي يتدخلن بالعنف لحسم أية قضية ، للنساء أكثر من وسيلة وخدعة حينما تبدأ الحرب . تمنت أن ترى وجهها لمرة واحدة فقط قبل أن تموتليست نرجسية منها ولكنها تريد أن ترى وجهها البشري قبل أن يذبل وتحاول اصلاح ما فعله الزمن بملامح أنوثتها . وحققت حلمها بعد فترة من الزمن .

ذات مرة شاهدت ملامحها في مكتب ضابطة كانت تأتي إليها في أوقات معلومة من اليوم لتقوم بأعمال النظافة . أعجبت بها لتفانيها في العمل وسمحت لها أن تمسك مرآة كنوع من الأجر المدفوع ، دائما هناك أجر وشئ ما للبيع كما كان يقول أخيها نعمان عندما يشرح لها كيف تتصارع الطبقات ويدور رأس المال ؟ . تأملت ذاتها بأستغراب ، كادت تصيح :

- من هذه السيدة ؟ .

لكنها كتمت صوتها وقالت بهمس :

– لست أنا .

أصيبت بالدهشة من الحرارة والزمن الذين نحتوا آثارهم عليها كما لو كانت قطعة صلصال . كان وجهها جافاً من قلة الماء وامتداد فصل الصيف عام بعد آخر ، نمت الشعيرات السوداء السميكة في جوانبه وسقط جزء من الكحل من عينها ، جلدها محروق من أثر العمل الشاق في السجن والاجهاد الدائم ، لم تعد مريم الجميلة التي تمنت ذات يوم أن تصبح ممثلة مثل الفاتنة أودري هيبورن . حاولت أن تستعيد صورها القديمة لتعزي نفسها حينما كانت صبية تحسدها البنات لجمالها وتتسابق العيون لرؤية وجهها الجميل لكن ما شاهدته منع أي صورة من الخروج إلى ذاكرتها وخرجت بدلاً عن ذلك دموع خفيفة استقرت بعينها دون أن تنزل. فكرت أن تتصالح مع الأنثى الجديدة التي شاهدتها تواً في المرآة لكن منذ ذلك اليوم لم تتح لها فرصة أن تنظر لنفسها لتعقد الصلح إلا عند اقتراب سنواتها الأخيرة في السجن .

حدث أن سجنت سيدة لمدة شهر داخل مكتب رائدة . لم يتح لكثير من المسجونات رؤيتها لكن اخبارها وصلت إلى مسامعهن « سياسية مشهورة » «يقال إنها صحفية مهمة »تناقلت الأخبار والأسئلة

عنها لفترة « لماذا ليست موجودة في العنابر مثلنا ؟»ثم أتيح لمريم أن تلتقيها حين طلب منها يوماً أن تدخل لنظافة المكتب وغسل بعض الملابس المتسخة . قابلت السيدة التي تدل تفاصيلها على إنها في الخمسين من العمر ، كانت ترتدي نظارة كبيرة وملابس أنيقة لاتتناسب مع أجواء السجن ، تمسك بيدها كتاب عن تاريخ السودان الحديث تقلب صفحاته وكوب من الشاي الساخن لايزال موجود على طاولة .وجدتها وحيدة مما أتاح لها بعد الانتهاء من العمل فرصة أن تسألها :

– لماذا أنتي هنا أيتها السيدة المحترمة ؟ .

ردت عليها بالقول :

– بسبب قضية نشر صحفي . كتبت مقال عن الفساد يمس والي ولاية الخرطوم وإحدى الشركات الكبيرة ووضحت تورط الأطراف في قضايا رشوة وتلاعب بالمال العام .

لم تطلب مريم مزيداً من الشرح . وقالت :

أيمكن أن أحصل على مرآة أريد أن أرى وجهي .–

تعاملت معها السيدة بلطف وسألتها عن قضيتها ، تحدثت معها عن حال السجن ووعدتها بنشر قصتها إذا كتبت مذكراتها ذات يوم

.مدت لها مرآة ونظرت مريم فيها لكن بعد أن شاهدت وجهها ادركت إنها غدت كائن آخر . ربما مسخ فتراجعت عن عزمها في التصالح مع ملامحها الجديدة ، نسيت شكلها ثم ما عادت تعرف من تكون؟ ضاع وجهها الجميل في زحمة الزمن .

كافحت طويلاً لتحافظ على أنوثتها لأن ما يمتلكه الإنسان العادي لم يكن متوفر بالنسبة لها . تتحصل على كمية بسيطة من الصابون الرخيص ذا لون رمادي باهت يميل إلى الأبيض ، حارق وبلا رائحة وبالكاد يكفي للإستحمام وغسل الثياب ، اقتصدت لتحافظ عليه فتحملت العرق والتراب في ذروة الصيف . أتلف شعرها ، جفف جسدها ، لكن الحصول على صابون في السجن كان يعد انتصاراً . تخبرهن السجانات أن الأغراض الشخصية ليست مسؤوليتهن . قالت سجانة :

– واجبنا أن نحرسكن فقط الدولة لا توفر هكذا أمور هنا. كل غرض شخصي مثل الصابون وغيره يجب أن توفره الأسرة أو تشتريه المسجونة من حر مالها .

ثم أعقبت حديثها بوابل من الشتائم . اعتادت على سماع السيء من الألفاظ كلما طلبت شيئاً على شاكلة « أغربي عن وجهي يا بنت الزنا »« أي جسد هذا الذي تريدين نظافته . أذهبي ونظفي عارك أولاً

»«يلا يا شرموطة من هنا . أنتى اخذتي صابونك من أمس » « يا ريت تموتو وتريحونا منكم زاتو . أصلكم قاعدين لينا زيادة عدد » .

احتفظت بالليمونة الوحيدة التي كانت تعطى لها خلال الأسبوع لتمسح بها أبطهامن رائحة العرق . تعلمت أن لا تأكل كل ما يقدم لها وتستفيد من الأكل في نظافة جسمها. تركت جسدها وشعرها لشهور كثيرة دون أن تدهنه بالزيت أو العطر ببساطة هي لا تملك شئ . حلمت في يقظتها ببحور من زيت الزيتون واستيقظت على صحراء قاحلة لاشئ فيها . تقف في صف طويل مع غيرها من المسجونات لتقليم أظافرها بين حين وحين وعندما تقرر السجانات إن آوان نظافتهن حان . تمد أصبعها خلسة في صحون الفول بحثاً عن زيت ترطب به شفتاها لتبتسم في دلالكما كانت تفعل في الماضي .

تصاب بالهلع كل شهر حين تتساقط دمائها وتركض ناحية الضابطة المسؤولة عن توزيع القطن الذي يغطي جروح النساء . تخبرها أن جرحها ينزف فلا تمد لها ما يداوي عورتها إلا بعد أن تفرغ من أعمالها إن كانت مشغولة أو تتركها لساعة تترجى في صمت . في بعض الأحيان لايكون هناك قطن فتضطر إلى تمزيق جزء من ملابسها وتغطي جرحها بنفسها . عندما تتحصل على القطن كانت تتركه يوماً كاملاً إلى أن يتغطى بالدم تماماً . وفي بعض الأحيان تفوح

منه رائحة عفونة قبل أن تفكر في استبداله لأن الحصول عليه في السجن عمل شاق .

كافحت خلال مسيرة حياتها لتحصل على أشياء صغيرة . لم يكن غرضها أن تحفظ أنوثتها بل الجانب المتبقي من الإنسانية فيها . كم تخيلتها تحظى بزجاجة عطر ، أظنها ستطير كفراشة وستزور أخيراً كل حدائق المدينة لتتعرف على سكانها وتحدثهم عن نفسها . ليت أحدهم أهداها حذاء جديد لرقصت كأميرة شرقية . آلمني قولهم أن الجنة تحت أقدام الأمهات وسارت هي دهراً على الأرض بحذاء بالي دون شكوى .

العنابر الموجودة في سجن النساء بأم درمان مصنوعة من الزنك وبها ثقوب كبيرة تدخل من خلالها أشعة الشمس ، لايوجد ظل بارد للراحة والمكان الذي تمكث فيه مريم مخصص لأصحاب الأحكام الطويلة يسمى (حوش البقر) لأنه يشبه حظائر الأبقار .

***

سجن النساء بمدينة أمدرمان لا يقدم للنساء ما يستر عورتهن من الملابس وقطع القماش . ولا يوجد فيه زي موحد مثل بقية سجون العالم . تعتمد النساء على ما يجلبه لهنَّ الأهل بشرط أن يتوافق مع مزاج وايديولوجيا السجانات والسلطة العامة بالبلاد . اعتمدت مريم

في بداية مشوارها على ما كانت ترتديه حين دخلت للمرة الأولى ثم تحصلت على ثوبان (جلاليب منزلية رثة) من إحدى المسجونات بعد أن اشفقت عليها من ثوبها الوحيد . هكذا امتلكت ثلاثة أثواب تناوبت على ارتدائها وغسلها . بعد مضي عدة سنوات تمزق أغلبها وبهت لونها وصارت مثل الخرق البالية . حين تحدثت مع سجانة عن حوجتها لما يستر جسدها جاء الرد المألوف :

– يلا يا بنت الكلب من هنا كمان ناقص الحكومة تصرف عليكم . أمشي شوفي ليكي شغلة تنفعك .

لا تملك مسجونة أبرة وخيط لرقع تمزقات الملابس . وجود أبرة في يد إحداهن ولو لدقائق معدودة كان يعد جريمة كبرى . تحملت انكشاف بعض مواضع جسدها أمام أعين النساء . سارت شبة عارية إلى أن نهشها الخجل والبرد في الشتاء . لم تكن تملك ملابس داخلية غير لباس واحد جاءت به وتحملت قذارته لسنوات . حدث ذات يوم أن مرت بعض الباحثات الاجتماعيات على المسجونات لتفقد أحوالهن ومعرفة ما ينقصهن ، كنَّ فتيات صغيرات لا يشغل تفكيرهن غير وضع المكياج والتبرج . ينطلق الجهل من أعينهن مثل شرار النار . باردات . مؤدلجات إسلامياً . مشاريع أبقار مستقبلية بإمتياز . سفهاء . جاهلات بمجال تخصصهن

. قلوبهن مملـوءة بالغبـار . قميئـات . حارسـات سـلطة . عنيـدات . يتلصصن على حيوات السـجينات . طبـاعهن حـادة . فارغـات مثـل أكياس البلاستيك . يحملن حقائب أكبـر مـن عقـولهن . وقحـات . مصابات بالبلادة . مغرورات . ينظرن إلى المسجونات كأشياء وليس كائنات بشرية . لو ترك لهن الأمر لطالبن بإعدام وحرق كل سـيدة في السـجن . حـدثتهم عـن حوجتهـا للملابـس ، قالـت واحـدة مـن الباحثات :

.ليس في يدنا شئ لكن سنذكر القضية في تقاريرنا-

التزمت الصمت . عرفت أن شئ من هذا لن يحدث فهن بحكـم خلفيتهن الإسلامية لن يـذكرن كلمـة ملابـس داخليـة وإن حـاولن تجميلها وزخرفتها . وهذا ما حدث . انقضى على حديثها معهن عـام كامل دون أن يقدم لها أحد شئ . قالت :

– لماذا لا ينظرون إليَّ كإنسان ؟ ماذا يضير لـو قـدمت لي واحـدة منهن لباس داخلي من فلوسها الخاصة . يا ترى كم كـان سـيكلفها ؟ ليت إحداهن اعتبرتها زكاة أو صـدقة أم أن السـجينات غـدون أكثـر رخصاً من ثمن لباس داخلي .

حلت المشكلة بعد فتـرة مـن الـزمن حـين تحـدثت مـع سـيدة أوشكت على الخروج ، كان طلبها محرجاً لكنهـا خافـت أن يتمـزق

لباسها الوحيد . حينها ماذا ستفعل بأيام الدورة الشهرية ؟ شرحت لهذه السيدة ظروفها بصوت منكسر .. آهٍ لو أن الرب سمعها في تلك اللحظة . اعطتها السيدة ملابسها الداخلية المستعملة ، وخرجت .

***

يؤذن الكون بالنسبة لها عند بدء تناول الماء والشاي الأحمر الثقيل . في الأسابيع الأخيرة التي سبقت رحيلها إلى عالم الظل كانت كلما تناولت كأس من الماء تتوقف عن الشرب بعد الرشفة الثانية أو الثالثة وتتصلب في مكانها وعينيها تحدق بشكل مستقيم ناحية الأمام فترى في دهاليز ذاكرتها مشاهد لا يراها أحد سواها أو تبحث عن زاوية فارغة تتقرفص فيها مثل طفلٍ يختبئ من العقاب والكأس لايزال يرتجف في يدها الهزيلة .

تعود إلى سنواتها الأولى في سجن النساء حين تم حبسها في زنزانة انفرادية لمدة أسبوعين ، بالكاد اتسعت جدرانها لتحمل جسدها النحيل ، أرض الزنزانة مصنوعة من الحجر الذي يلتهب مع الشمس الشئ الذي دفعها للصراخ والاستغاثة بمجرد إنقضاء نصف ساعة . نادت على السجانات :

– الحجارة الساخنة تحرقني .

سمعتها سجانة كانت تتمشى بكسل والعلكة (اللبان) تتمايل في

فمها ببطء . كأن الصوت القادم من بين الحجر وأسمنت الجدران كان هو الإشارة المنتظرة ليدب فيها النشاط فسارعت الخطى نحو مصدر النداء الذي شق تلال الصمت التي تغطي بقية الزنازين هناك تسائلت السجانة بدهشة عن سبب الضجيج ، فتحت الباب بعنف . أصدرت المفاتيح مع الحديد صوتاً مزعجاً تقشعر له كل شعيرات الجسم ولاحقاً سيكون هو النغم الذي ستسمعه مريم لآخر يوم في حياتها . بمجرد دخولها نزلت على الجسد الهزيل بالضرب وكأنه المسؤول عن حالة الكسل والفتور التي كانت تعاني منها قبل دقائق . بلل العرق السائل الذي خلفه الضرب والألم جزء من ملابسها ولسان حاله يعاتبها :

ليتك تمتصيني بدلاً من نداءٍ لا يجدي .-

ظلت طوال فترة بقائها في الزنزانة الانفرادية تتقصى تحركات الظل لتريح جسدها عليه . تمنت لو تحولت لعنكبوت لتتخذ لها ركن صغير عند ظلال لا ترحل .

امتصت الظهيرة السوائل المحفوظة بين طيات اللحم بسرعة . تعذبت في مساحتها الضيقة من العطش فلا ينفع أن تنادي وتصرخ طلباً للماء لأن هذا يعني عذاب جسدي آخر . تبتلع ريقها وتتوسد الأرض وهي تحلم بكأس ماء بارد ممزوج بالسكر فتدرك إنه حلم

بعيد المنال وتكتفي في أحلامها وعينيها نصف مفتوحة بما يروي عطشها الحالي وإن كان ماء معكر بالطين . منذ قدومها إلى هذا المكان لم تعرف معنى ماء بارد . لسبعة أعوام منذ بداية تسعينات القرن الماضي كانت السجينات يشربن في بعض الأحيان من ماء المرحاض . ولم يتحسن الحال بعد ذلك بل ظل الماء الحار هو ما يروي عطشهن . حلوقهن جافة دائماً . العطش رفيقهن الدائم .

تتذكر بعد مرور عدة أيام من تواجدها في الزنزانة مرور واحدة من السجانات في البهو الطويل وسؤالها للنزيلات عن حاجتهن . سمعت صوتها من بعيد فنهضت وتحسست فمها بلسانها لترطبه وتتقوى على الكلام . عندما اقتربت منها سألتها أن تمد لها ماء دون أن تأتي مواعيده المتوافقة مع مواعيد وجبات الطعام . منذ أيام في الحبس الإنفرادي تناولت أخيراً الماء في غير أوانه ، لم ينفتح الباب ، شربت من خلف القضبان فأندلق نصفه على الأرض ، تتذكر كيف لهثت بالشكر لمرور تلك السجانة المفاجئ وسؤالها عن حاجتها ، دهشت لطيبتها وخمنت إن مزاجها كان في أفضل حالاته لاشك إنها تحتفل بمناسبة سعيدة . ارتمت على الأرض الصخرية وذكرى الإرتواء العذبة تدغدغ مشاعرها. بقايا الماء المتساقط أرسل البرودة إلى جسدها عندما تضع يدها عليه فتغيب في الصمت .

لايزال الكأس في يدها والعقل مثقل بالذكريات .

لا تعود للشرب بل إلى زمن بعيد . تأخذها ذكرى الماء إلى إحدى حراسات الشرطة التابعة لمنطقة الخرطوم 2 ، حينها كانت الأنثى الوحيدة في هذا الجزء الغائب عن ذاكرة التاريخ وحينما كانت البلاد تغلي من الإنقلاب العسكري الجديد والوطن مشغول بالحكومة التي تكونت فجأة دون موافقة الشعب عليها .كانت السجون والحراسات وقتها منطقة مظلمة ولاتهم أحد وغائبة عن أحاديث الصحافة . لم تختبر في حياتها هكذا مكان فأصيبت بالشلل لمدة عشرة دقائق فلا هي نطقت أو تحركت أو أصدرت إيماءة تدل على وجود الحياة بعدما سمعت إجابة العسكري الذي كان يهم بإغلاق الباب عليها ، طلبت منه بإبتسامة مكسورة ونظرات إغراء تنطلق من عينيها أن يناولها بعض الماء . وضعت كل سحرها الأنثوي في هذه اللحظة لأن العطش داهمها منذ ساعات و لم تجرؤ على الكلام منذ فترة ناهيك عن الخوض بشأن طلب شخصي . القى العسكري ببرود وبداهة الإجابة في وجهها مصيباً إياها بشلل مؤقت :

– هناكعلى بعد خمس خطوات مرحاض قديم فيه دلو مملؤ أشربي منه وأدعي لنا .

قالت بدهشة :

– أشرب من مرحاض . أيمكن على الأقل أن تحضر لي كوباً وسأكون شاكرة ؟. ضحك وهو يقول :

–طيب . حاضر . لكن ماهو المقابل ؟ .

لم تفهم حديثه فأعادت صياغة السؤال :

– أي مقابل تعني ؟ لم أفهم .

أقترب منها قائلاً :

–بوسة . حضن . أعطيني أي شئ وسأحضر لك ماء شرب من مكان نظيف .

غضبت وردت :

– لا . ولا تحلم .

تنهد ببطء وقال :

حسناً .. سنرى . –

كان عليها أن تتجرأ وتدخل فتشرب بيدها أو لسانها . صدتها الروائح الصادرة من المرحاض لكن بعد انقضاء ساعة من الزمان مدت رأسها إلى داخل الدلو لتشرب من هول العطش . قالت بصوت منكسر :

تحولت إلى كلب . قطة . أي شئ آخر عدا جنس البشر .-

سمعها الرجل فأبتسم . داعبها قائلاً :

-حراستنا بمثابة فندق من خمس نجوم . ألم تسمعي عن أحوال الحراسات في أطراف الخرطوم؟ هناك من يموت دون يعلم عنه الناس شيئاً ومن يخرج سليماً وعلى قيد الحياة يكون مثل الناجي من الموت .

تجاهلته . ذهبت لتغرق في أي مساحة من الأرض العارية . بعد إنقضاء يوم فرغ الدلو . كان عليها أن تطلب من ذات العسكري ما تحتاجه للشرب وقضاء الحاجة . كرر عليها طلبه القديم ، رفضت مجدداً وتحملت حتى غدت رائحتها مزيج من البراز والبول . نادت عليه ، حين أقبل بعد برهة من الزمن مدت يديها إلى ملابسه واحكمت قبضتها عليه وقبلته من خلف قضبان الحراسة . لم ينفر من رائحتها ، طلب منها أن تتوقف إلى حين يفتح الباب ، قبلها وهي في حالة مزرية لما يقارب العشرة دقائق . واحضر لها ماء بعد انقضاء ساعة ونصف .

تجولت في ذكرياتها البعيدة حين ربتت يد على كتفها مشيرة لها بأن تنهي عملية الشرب . تجرعت ما تبقى وجالت ببصرها حول المكان تبحث عمن يواسيها ويخبرها أن كل ما تعرفه مجرد أوهام

سرعان ما ستستفيق منها على واقع جديد . بحثت في وجوه النساء عمن يهتم لأمرها حقاً ويسألها بصدق « كيف حالك ؟ » أفتقدت هذا السؤال . يكمن الحب في التفاصيل الصغيرة ، لو أن أحداً أحبها هنا لسألها « كيفك ؟ » في الحب تسأل الرائحة والعينان قبل اللغة . تمنت أن تجد من بين الحاضرين من يسألها الرحيل إلى أي مكان لا تعرفه لتبني ذاكرة جديدة تكون قريبة من أرض الحرية التي طالما حلمت بها . استغرقت في أحلامها مع ابتسامة هادئة دون أن يلاحظ وجودها أحد ليخبرها كم كان وجهها جميلاً .

***

تبدأ الشمس في إرسال أشعتها والصباح برائحته العذبة يعطي الإذن لبداية يوم جديد لكنه صامت فلا وجود لأصوات العصافير إلا قلة تناثرت هنا وهناك والنساء المستيقضات تواً لا يأبهن بغنائها فكل واحدة منهن مشغولة بترتيب مرقدها وتنظيف نفسها وضرورة تناول الشاي والماء بسرعة فلا مجال لتأمل الصباح أو التوقف لبرهة للشعور بالراحة التي يبعثها في النفس لأن الإنتهاء من الأعمال الصباحية دون إثارة غضب السجانات كان بمثابة إنجاز بطولي يستحق التهنئة والإشادة وهو ما ظلت تنجح فيه مريم طوال سبع سنوات . للسجن مواقيت خاصة ، كل دقيقة تعني عمل وجهد وكل

ساعة تمر تكون محسوبة لأن أعين السجانات تراقب كل شئ .

منذ يومها الأول في السجن لم تتناول غير الفول في وجبتي الفطور والعشاء ، كان فول عادي منزوع الملح والبهارات بدون جبنة أو زيت كافي . ولم تشتكي مثل حال جميع السجينات لأن الشكوى ممنوعة وتجلب العقاب . كل وجبة تذكرها أن حياتها توقفت في بقعة معينة ولن تتزحزح عنها . لم تكن تملك المال الكافي مثل بعض النزيلات لشراء البيض والطماطم والزبادي من كشك صغير تعود ارباحه لإدارة السجن فأكتفت بما يقدم لها . تأقلمت مع الروتين وعلى برنامج يومي لا يتغير الغرض منه اعادة تشكيل عادات السجين على برامج تنظمها السلطة وتعتبرها نموذجية وتريد انتاج أفراد يمارسونها عند خروجهم من السجن . الطعام بالنسبة لها لم يعد يعني اجتماع الأهل والصديقات أو المذاق . قالت في مؤانسة مع نزيلة تشاركها ذات الوجبة :

-لا يمكن أن يحصي إنسان أسباب السعادة على وجه الأرض لكن بينت لي التجربة أن لمذاق الطعام ارتباط أصيل بمختلف المشاعر الإيجابية .

ردت النزيلة عليها :

- كيف ذلك ؟ اشرحي لي .

شرحت فكرتها قائلة :

– لو كنا نتناول مكونات أكل مختلفة ومتعددة لشعرنا بإختلاف الحياة نفسها . اختلاف يوم عن يوم ، اختلاف ساعة عن ساعة . كنا سنشعر بكرات من نور ترقص فوق حبيبات اللسان .

ذهلت النزيلة وتوقفت عن مضغ الطعام لتجيب :

–صحيح .. إن التذوقجزء من حواسنا الخمس بالتأكيد خلق لغاية نبيلة ولنشعر بالاختلافات في الحياةونعرف من خلالها كيف نتحصل على الفرح . لنجرب مذاق الحلو فيسافر بنا إلى مدن المرح . ثم نجرب الحار واللاذع فيقرصنا في أعماق قلبنامثل لسعة نحلة على الخد .

تحمست مريم وأردفت قائلة :

– التذوق فن يرتقي ويتهذب . لايمكن أن ندرك كل ماهو جميل في غيابه . إن المحروم من تذووق الطعام لا يختلف عن الأعمى الذي لايعرف الألوان ومحروم من نعمة رؤية جمال الدنيا .

سألت النزيلة بصوت خفيض :

– أتعتقدين أنهم يقتلوننا بما يقدمونه لنا ؟ تناولت هذا الطعام لسنوات دون أن يختلف . الآن لم أعد اكترث ، أأكل لأظل على قيد

الحياة ، لأؤدي عمل ، لأتحرك ، لأتنفس فقط . أهذا قتل من نوع لا نعرفه ؟ .

أجابتها بحماس :

– بالتأكيد هو كما ذكرتي إنهم يغتالون كل ما يذكرنا بالإنسانية والأكل واحد منها بل هو الغريزة الأساسية .

قالت النزيلة :

– ما رأيك أن نحتج ونطالب بتحسين نوعية الأكل .

خافت مريم فقالت بسرعة :

– حينها سنعدم في الحال . سيحرموننا من هذه القذارة إلى أن نعود ونستجديها . أسبق لك أن سمعتي عن احتجاج ورفض في تاريخ سجون السودان ؟ .

قالت النزيلة بعد تفكير :

– لا. ولا أعرف لماذا لا يحدث تمرد على هذه الأوضاع السيئة؟.

التزمت مريم الصمت ولم ترد ثم امتلاء المكان بالسكون والخوف وانطفأت شرارة الثورة والاحتجاج التي اندلعت في

الأذهان لفترة قصيرة .

احتفظت بكيس صغير يحتوي على الملح بداخله . ناولت رفيقتها بعضاً منه وصبت لنفسها . الحصول على الملح رحلة كفاح شاقة وطويلة ومرهقة داخل السجنولا تقل أهمية عن الكفاح من أجل الحياة في أزمنة الحروب . من يعتمد على وجبات السجن يعيش المجاعة بكل تفاصيلها وسياسة التجويع واتباع نمط غذاء سئ أهم أساليب تطويع الجسد والسيطرة عليه . آلية ناجحة تتبعها السلطة للحرمان من الحرية واخضاع العقل لمذاهب الحكومة . السجن هو بيت الدولة حيث مأوى أبنائها وبناتها .والسجينات يدركن إنها تقدم لهن أكثر أنواع الطعام رداءة ، بلا ملح ، بلا نكهة أو مذاق ، تقدم الدولة لهن القمامة الزائدة عن الحاجة . أن تتقئ سجينة بعد تناولها وجبة طعام يعد مشهداً عادياً ومألوفاً لا يثير الاهتمام ، أن تركض إحداهن بعد الأكل ناحية المرحاض وتصاب بعدها بالإسهال يعد أمراً شائعاً ، لو شاهد شخص من الخارج ما تأكله هؤلاء النسوة لأمتنع عن تناول أي شئ من شدة الغثيان . كيف لا يحدث احتجاج داخل السجن على هذا الوضع السئ ؟ ربما لأن ما يحدث داخل اسوار السجون يبقى داخلها بعيداً عن دائرة الضوء ومن أجهزة الأعلام الحرة .

نظرت ناحية يدها حيث حروق صغيرة تزين جوانبها ، تنهدت ،

كل لون يأخذها لأعوام مضتوإلى مطبخ السجن تحديداً : غرفة ضيقة بها مواسير طويلة لتوصيل الغاز ، جدرانها سوداء من الأوساخ ، ذات حرارة عالية تقارب من الاشتعال وتتوسطها قدور كبيرة لطهو العدس والفول والفاصولياء . خدمت في ذلك المكان لسنوات واحرقت يدها عدة مرات دون أن يأبه لأمرها أحد . تعرفت على سوء المكونات التي كانت تقدم لهن للطهو ، كان الفول قديم وجاف والعدس مهما تم غسله فأن الأوساخ تظل عالقه به ، أما وجبات الغداء فكانت من مكونات طعام لاتقل رداءة وسوء وتفوح من الطعام أحيانا روائح غير محببة للنفس مهما تم طهوه في نار عالية . وكثيراً ما سمعت عبارة ترددها كل مسجونة جديدة :

– أنتو مستحملين الوضع ده كيف ؟ ياخ الحيوانات ما ممكن تاكل القرف ده .

ترد نزيلة أخرى :

– ستتعودين على أكل السجن فلا يوجد غيره والحياة غالية الثمن . نحن نأكل لنظل على وجه الدنيا . مجرد أحياء في خدمة السلطة .

شعرت يوماً بألم حاد في المعدة وعلى قدر وجعها كانت سعادتها لأن المرض يعني الرعاية والاهتمام من جانب الآخرين . أن تقابل

طبيب يعني وجود من سيهتم بأمرك ويشعرك بوجودك ككائن بشري .قالت يومها للجميع :

- أنظروا أنا هنا .

هذه الجملة هي ما تسعى كل سجينة إلى اثباتها في كل لحظة سواء عن طريق سرد خبرتها للمستجدات أو خدمة السجانات أو ايماءات خاصة لأن السجن يسلب الكينونة ويشعر الفرد بأنه غير موجود لذلك يكون الغرض من مختلف الأفعال والاشارات التأكيد على الوجود . لكن بعد مرضها تجاهلتها السجانات كما يفعلن مع جميع السجينات على أمل أن يشفين لوحدهن . لم تتحسن حالتهاواصابتها حمى شديدة .طلبت مقابلة مختص طبي واستغرقت اجراءات المقابلة عدة أيام . مقابلة طبيب في سجن النساء بأم درمان يمكن أن تستغرق أسابيع لأنها تتطلب الحصول على أذن من المحكمة .

ذهبت مع سجانة لمقابلة المساعدة الطبية . كانت بدينة . ترتدي الروب الأبيض وتضع مساحيق تجميل كثيرة ، كانت تشبه المهرج من كثرة الألوان في وجهها .يبدو على ملامحها عدم الاهتمام واللامبالاة ، منهمكة بقرأة صحيفة صفراء تحمل عنواناً عريضاً عن قبائل من الجن تسكن منطقة في أرض السودان وتزوج ملكها من أبنة

زعيم قبيلة . . حين التقطت عيون مريم المانشيت العريض كادت أن تضحك وتسأل عن صحة الخبر لولا أن الألم والوضع العام منعها . نظرت إليها المساعدة بإرتياب ثم سألتها بإمتعاض عن شكواها . حدثتها عن الحمى الشديدة بساعات الليل والعرق الذي يسيل من جسدها دون سبب واضح وحدثتها عن حزنها . لم تمد المساعدة الطبية يدها لتلمس جسد المريضة خلال الكشف وهو ما كانت تحتاجه أكثر من حوجتها للعلاج وكثيراً ما قالت لها :

- ممكن تلمسي هنا (مشيرة إلى منطقة البطن والجبين) .

لكن المساعدة الطبية تجاهلتها وردت عليها بقسوة اخرستها :

- أسكتي . عايزة تعلميني شغلي .

طلبت المساعدة تحويلها إلى طبيبة فكان عليها الانتظار لأيام أخرى . تحسنت صحتها بعد تمكنها من الحصول على دواء لكنها ادركت إنها غدت مثل الشئ الفاسد المكتوب عليه بخط كبير « غير صالح للإستخدام » . فكرت بإنها لم تعد صالحة للحياة ، كل ما حولها ميت ، لا شجر أو ورد ينمو هنا ، تتجول السجانات وهنَّ يحملن بأيديهن سياط العنج ومن حينٍ لآخر يتعالى صراخ مسجونة وبكائها لأن السوط لامس لحمها . مع ذلك حاولت تعزية نفسها قائلة :

– أنا مفيدة لذلك يستغلني السجن ويستخدمني . لا يمكن لسلطة الحاكم إلا أن تمر من خلالي إن كان للسلطة نماذج فجسدي واحد منها .

ازداد عليها المرض ولم يتمكن أي من الأطباء من تشخيص مرضها بعد ذلك حيث أصيبت بمرض متلازمة وهم كوتار النادرة وهي مزيج من الأمراض النفسية التي يصعب علاجها . منذ أكثر من عام بدأت تتهيأ أن جسدها تعفن وجميع من حولها موتى . كانت بحاجة إلى عزلة بجوار البحر وأن تعزف لها موسيقى الفصول الأربعة لأنطونيو فيفالدي وصديق أو حبيب يجالسها في طرقات مدينة حالمة ويحدثها عن أشجار تفاح تنمو فوق رؤوس الناس فتضحك من غرائبية القصة . تمنت لو ترتشف القهوة مع شخص عابر ويقدم لها الحلوى عندما يهم بالمغادرة . ليتها قضت أمسيات في مقاهي تسقيها الغرام . لم يحدث ولو القليل من أمانيها . ليت أحدهم ساعدها على الشعور بوجودها وماهيتها كإنسان .

ظلت داخل سجن النساء تعاني المرض والعزلة دون وجود رعاية طبية كافية إلى أن جاء يوم وكانت منحنية تنظف التراب ففوجئت بسوط حاد يشق ظهرها ويترك علامة لازمتها إلى موعد موتها . لم تصرخ بل نظرت ناحية السجانة التي قالت لها :

يا بت أمشي نظفي هناك اشتغلي كويس .

– القت بمكنسة السعف على الأرض وصرخت بها :

.أسمي مريم ، مرررريم

– وصفعتها .

في اليوم التالي استيقظت بجسد متورم من هول العقاب الذي تلقته على ضربها للسجانة ولم تنفع الأدوية القليلة التي تتناولها في مساعدتها وتحسين صحتها . بعد أيام لم تنطق بعبارة مفهومة وفقدت عقلهاللأبد . تم تحويلها بعد ذلك إلى مصحة كوبر للأمراض النفسية والعقلية والمصحة في حقيقة الأمر لم تكن غير سجن صغير يتم تحويل المرضى إليه من السجون الكبرى .ظلت هناك ست سنوات أخرى ، وماتت .

أنفاس ثقيلة

لاحقاً مكثت عند صامويل بيتر عدة أيام لأستريح من تعب السفر والتجول بين الناس وسجن أمدرمان للنساء وسؤالهم عن أحوال السودان وماذا حدث في الماضي ؟ وليكمل لي القصة التي بدأت فصولها بسجن أمي . قررت أن استريح قليلاً من عبء الحزن قبل أن يكمل صامويل السرد .

صامويل بيتر رجل جنوبي مهذب كان صديق خالي نعمان الذي رحل هو الآخر منذ زمان بعيد من البلاد. تكلمت معه ليرسم لي لوحة كاملة عن حياة أمي ويخبرني كيف عاشت وأين قضت سنوات حياتها ؟ ذهبت معه إلى منزله بحي الخرطوم 2 وهو مجاور للمنزل الذي قضت فيه والدتي سنوات عمرها ، لم أجرؤ في بادئ الأمر على طرق بابه أو استراق النظر إليه ، شئ ما كان يشدني لاقتحامه لكن هدوء صامويل سحبني

للذهاب معه إلى حيث طلب مني وتأجيل أمر الزيارة لاحقاً حتى أعرف ماذا حدث أولاً ؟ .

أثناء تناول العشاء حدثني عن ذكرياته مع خالي نعمان وكيف كان يرفض في أحيان كثيرة تناول الطعام بالمنزل . قال وهو يتذكر تلك الأيام الخوالي :

– لنعمان فلسفة خاصة في الحياة لم يفهمها كثيرون من أصدقائه المقربين . يفسر كل شئ ويضع له نظرية تتماشى مع التحليل الماركسي الذي كان يعشقه فهو يساري الهوى والهوية . كان يعتقد أن تناول الأكل من الشارع أكثر صحة لأن طعام الشوارعهو بوابة المعرفة بالثقافة العامة للبلد ومن خلال تناول وجبات الطعام من المطاعم الشعبية والداخليات في الجامعة يتعرف على ثقافة السودان الواسع . كثيراً ما كان يطلب من والدتي تحضير وجبات خاصة من جنوب السودان ويأتي هو بلحم البقر خصيصاً لإعداد تلك الوجبات.

نجح صامويل بيتر في تهدئتي وابعاد أحزان السجنلفترة عن مخيلتي . روى لى طرائف عديدة جمعته مع خالي وحكى لي كيف أن أهل الحي في سبعينات القرن الماضى كانوا يعاتبون نعمان لإنغماسه مع الفتى الجنوبي لساعات طويلة فكان يتهرب منهم بأسلوبه

الرشيق دون جرح مشاعرهم لكنهم مع ذلك ظلوا يتسائلون فيما بينهم عن ماهية الموضوعات التي تجمعهم . قال صامويل ضاحكاً :

– إنها الكتب والثقافة هي ما جمعني به قضينا أيام وليالي نتباحث ونفكر في القضايا العامة والخاصة . لطالما بحث نعمان عما هو جديد ومختلف ولم يكن يوماً عنصرياً مثل أغلب الناس في تلك الفترة الصعبة من تاريخ السودان . يحب الناس بمختلف سحناتهم ويصادقهم دون أن يهتم بقضية الجذور الثقافية والمستوى الاجتماعي لأن الإنسانية واسعة تشمل كل الأفراد.

روايات صامويل بيتر وذكرياته الجميلة مع خالي نعمان خففت كثيراً من حزني على أمي فنمت تلك الليلة كأني لم أنم منذ دهر . منذ زمن وأنا اتخيل ملامحها ووجهها في منامي ، تظهر كل مرة بشكل امرأة جديدة وهي تحضنني وتغطيني بسعف النخيل لكن تلك الليلة رأيت وجه امرأة خلف القضبان تنادي عليَّ وتسأل عن أخباري ولأول مرة أسمع صوتها يقول يا أبني وأنا اناديها ماما ووجدت نفسي أحدثها عن الحرية والبحر والأسماك الذهبية ، كان حلماً واضحاً ومخيفاً لم أجد له تفسير فسألت صامويل بيتر عن تفسير الأحلام . قال :

– إذن سترى وجهها قريباً فلا تحزن وأبتهج فالحياة بذاتها قصة

غريبة .

مع ساعات الصباح الجميلة واصل سرد الحكاية وواصلت أنا تقصي حقيقة أمي أو مريم بنت محجوب كما اعتاد أن يناديها صامويل بيتربأسمها كاملاً .

***

أول مرة أختبرت فيها عائلة مريم تجربة السجن كانت في العام 1971م وتميزت بطابعها الاحتفالي والبطولي رغم الصعوبات التي اعترضتهم في البداية . احتفلوا بالسجن كحدث اجتماعي لأنه كان مكان غريب عنهم والقضية لم تكن ذات طابع جنائي . كانت كثير من المؤشرات تدل إلى أن أحد أفراد الأسرة لابد أن يقوده الدرب يوماً إلى المعتقلات والسجون وبشكل خاص الإبن الأصغر نعمان ذو الميول اليسارية .

نحيف وصاحب شعر كثيف ولون يميل إليالأسمر الفاتح ، يشبه أبناء جيله بملابسه العصرية وحقيبة اليد الطويلة التي كان يملئها بالكتب والورق الأبيض ويحملها معه حيثما ذهب . كان حينها في الصف الأخير بمدرسة الفنون . لايترك مناسبة أو نقاش عام يمر دون تسجيل اعتراض غالباً ما يتهم في نهايته السلطة بإنها وراء أي تدهور يصيب كل مجال . كثيراً ما تكون ردود الحاضرين ذات طابع

فكاهي لتلطيف الجو ولخوفهم من انتقاد الحكومة بشكل علني . يقول شخص من الحاضرين مازحاً :

– إذا أصيبت نملة بحمى فأن نعمان سيندد ويدين الحكومة ويطالب بحق علاجها مجاناً .

غالباً ما ينجح هذا الأسلوب في تهدئة أعصابه لينتهي النقاش بضحك الحاضرين وفي حالات أخرى لا يتفهم سياسة النكتة فيتابع حديثه وكأنه في ندوة هامة لتوضيح وجهه نظره قائلاً :

–نعم . أتمنى لو أفضح الإهمال المتعمد في الخدمات الصحية لأن السلطة تعمل من الاسفل إلى الأعلى وليس العكس إنها تبدأ بالضعيف وتلتهمه ثم تتحرك ناحية القوي لتخضعه لأفكارها وتجنده لخدمة مصالحها . لو كان الأمر بيدي لطالبت بمراجعة كل مرافق الطب البيطري وحق الحيوانات في الحصول على حياة كريمةوأولها حق الحياة والعلاج المجاني .

ثم يواصل حديثه إلى نهايته فيوافقه الحضور على كل ما يقول لتجنب الجدال واختصاراً للوقت . كان يعرف أن كلامه ليس له وقع في نفوس الآخرين من دائرة الأقارب وأهالي الحي ولا يتعدى نطاق الدردشة العابرة بالنسبة لهم وكثيراً ما تم نعته بالثرثار مع خفة دم محببة إلى القلوب فكان يرد عليهم شارحاً الوضعية التي طالما

داعبت خياله وتمنى لو يجسدها على أرض الواقع :

– أنا ثائر .

في حال غيابه عن التجمعات المسائية والمناسبات الاجتماعية فأن غالبية شباب الحي والشيوخ والرجال يخرجون لتفقده ومن جانبه لايدخر جهداً في مؤانستهم وحثهم على كل فعل من شأنه المساهمة في تطوير المنطقة ، يرتب لهم أفكارهم ويدونها في ورقة يسلمها إلى أكبرهم سناً وينظمهم في جماعات عمل صغيرة لإنجاز المهام البسيطة . تحول لبطل شعبي في أوساطهم نظراً لآرائه الجريئة وأخذه لزمام المبادرة في معظم الأحداث الاجتماعية والثقافية . يعبرون عن اشتياقهم له قائلين فيما بينهم :

– لا تحلو جلساتنا وتجمعاتنا بدون نعمان . نفتقد مرحه وجداله الذي لا ينتهي .

يرسلون عقب تعليقاتهم وحسرتهم على غيابه من يبحث عنه في المنزل . ويطلقون صيحات الفرح إذا نجحوا في العثور عليه . مع ذلك كان لنعمان عوالم أخرى لا يعرفها أهل المنطقة وكثيراً ما كان يختفي لأيام ثم يعود بحجة تواجده مع صديق . يذكر أسماء لأصدقاء معروفين وآخرين مجهولين فيعاتبه الأب محجوب في بعض الأحيان ويصفه بالمستهتر . كان في نظره لايزال فتى صغير

رغم اكتمال رجولته لذا عقد الآمال في امكانية اصلاحه عبر إسداء سيل من النصائح ومحذراً إياه من مغامراته الخارجية والطرق الغامضة التي يسير فيها ولا يعلم عنها أحد شئ . كان يستمع بذهن شارد ويعد بتغيير حياته والسير في الطرق التي رسمها له والده . يشعر الطرفان بالرضا عن الاتفاقات التي يعقدانها بشكل متكرر ويومي ولا تنفذ أي من بنودها بشكل عملي وعلى أرض الواقع . يسمي نعمان هذه العلاقة الشائكة بالدرس الالزامي الذي يجب حضوره تفادياً للخلافات .

وبالمثل كان الإبن الأوسط الجيلي الذي يبقى عند كل نقاش هادئ ومستمع لكل جملة واشارة تصدر عن الآخرين لكن في حال تعلق الموضوع بالحركة الإسلامية وشخصية الشيخ حسن الترابي زعيم الحركة الإسلامية الذي كان معتقلاً آنذاك فأنه يتحول إلى ثور هائج فلا يحاول أي شخص مقاطعته إلى أن يخرج كل مافي صدره من كلام . يشبه أخيه نعمان في بعض التفاصيل والملامح ، طويل وحليق الرأس وصاحب عيون سوداء كأن ليل يسكنها . منذ وقت مبكر وجد في المسجد المجتمع المثالي الذي طالما حلم به . كان ملاذه في أوقات فرحه وحزنه واحتضنه مثل رحم الأم فواظب على حضور حلقات الدروس الدينية وحفظ القرآن كاملاً فلم يضطر لدخول الخلوة وتلقي تعليم ديني على يد مشايخ الطرق الصوفية مثل

بقية أخوته . يقول :

رباني المسجد فأحسن تربيتي .-

كثيراً ما كان يرفع الآذان وينشط في احياء ليالي الذكر الرمضانية فأكتسب سمعة طيبة وهيبة جعلت منه شخصية غامضة عند البعض ممن لايجرؤون على ادارة حوار معه فالمفهوم الشائع في المنطقة أن رجل الدين أو الشخص الشديد الالتصاق بالتدين على صواب دائماً ولا تجوز مناقشته وابداء الاعتراض على آرائه . كان يرتقي عند أهل الحي إلى مرتبة القديس أو نائب الله على الأرض دون أن يتسائلوا عن ماهية المذاهب الدينية التي يتبعها ، الدين كله عندهم سواء طالما الفرد ينطق بالشهادة وموحد بالله . تعرف على شخصية الإمام أبو حامد الغزالي في سنوات مراهقته الأولى وأعجب به وبلغ حد أن شرع في قراءة أجزاء متفرقة من كتاب إحياء علوم الدين وردد المقولة المشهورة :

كاد الإحياء أن يكون قرآناً .-

فيما بعد دخل جامعة الخرطوم كلية الشريعة والقانون وتعرف على شخصيات إسلامية أخرى كان لها أثرها في تكوينه الفكري وتوجهاته السياسية أمثال الإمام حسن البنا والمفكر الإسلامي سيد قطب وعندما فرغ من قراءة كتابه معالم على الطريق وهو لايزال في

بدايات عامه الجامعي الأول قرر الانضمام للحركة الإسلامية والانتظام في صفوفها . ناقش الأمر مع محجوب والأم سميرة فوجد منهم كل ترحاب حيث كانوا يثقون بمسلكه المستقيم ويتباهون بثقافته وعلمه وتمسكه بالدين . لايعرفون شيئاً عن الأحزاب السياسية لكن طالما الحزب ذو طابع إسلامي فلا مشكلة لديهم .

هذا التنافر والاختلاف الفكري بين الأخوين الإسلامي واليساري لم يهدم مظاهر الود والصداقة بينهم بل كان دافعاً لتعميق الحب بينهما وعثروا في مجال الفكر والتاريخ والسياسة على القاسم المشترك بينهم على الرغم من التباين الواضح . تحول المنزل لساحة سجال ثقافي يشارك فيه أحياناً بقية أفراد الأسرة . لم يكن الجيلي رغم ميوله الإسلامية متشدداً مع أخته مريم بل كان يحكي لها سير الصحابة ويحثها على الاطلاع على الكتب الدينية والروايات المصرية المتاحة آنذاك . يخبرها في مستهل حديثه :

المثقف السوداني لا ينفصل عن المثقف المصري ..-

وقبل أن يكمل ما بدأ بقوله يتدخل نعمان ليسجل اعتراض سطحي ويجذب مريم بحديثه الحلو فيضيع النقاش وسط مناكفة بسيطة وجدال يكون أحياناً ذا صوت عالي فيتدخل محجوب لحسم الصراع وتذكير الطرفين بضرورة الالتفات إلى الدراسة والعمل

وتدعم سميرة هذا الاتجاه بتأكيدها على وجوب النظر إلى المستقبل وترك الخلافات اليومية جانباً كما تسميها .

بعد تأسيس الرئيس السابق جعفر نميري للاتحاد الاشتراكي السوداني عاشت البلاد حالة احتقان سياسي وبداية حملة اعتقالات واسعة طالت مختلف كوادر اليسار وحلفائهم ولم يكن نعمان خارج دائرة الخطر . ذات أمسية صيفية قضاها مع صديقه الفنان التشكيلي عثمان وبعد أن أنتهى من وداعه سمع صراخ صديقه عالياً في الشارع:

– من أنتم ؟ أتركوني أنا لست شيوعياً . لم أفعل شئ وليست لي علاقة بأية قضية .

التفت إليه وكان يقاوم ما يقارب السبعة أفراد بأزياء مدنية وعسكرية في حين تجمهرت مجموعة من الناس لمتابعة المشهد من على البعد . يومها ركض بكل سرعته ناحية منزل معلمه في المرحلة الثانوية أستاذ علم الأحياء سعيد وبقى عنده ليومين . طالت القبضة الأمنية عدداً آخر من رفاقه الشيوعيين فشعر بالقلق . لم يخبر أحداً بما حدث واكتفى بالعزلة فظن الجميع إنه مريضلأن ليس من عاداته الاعتكاف بالمنزل .

كان عثمان فنان تشكيلي ، ماهر في مهنته يرسم بكل خفة واحساس ، تخرج من مدرسة الفنون ويسبق نعمان في المعرفة

والعلم والمراحل التعليمية . رجل ذو بنية قوية وعيون واسعة وشعر خفيف وصاحب ذقن مملوء بالشعر الأسود ، يبدو من مظهره كأنه قادم من أدغال أمريكا اللاتينية ، يرتدي بنطال جينز واسع ومتسخ قليلاً ولايغير ملابسه المتسخة إلا نادراً تضامناً مع طبقة البروليتاريا والعمال . من عائلة ميسورة الحال وذات جذور يسارية وماركسية وطبعت الثقافة على مظهره الخارجي حيث كان يبدو مناضلاً من هيئته ، له نظرات حادة تصيب القلب مباشرة . ساهم والده في تأسيس الحزب الشيوعي حينما كان أسمه الجبهة المعادية للاستعمار في أربعينيات القرن الماضي . تلقى تربية يسارية وهو صغير فنشئ على الثقافة العلمانية وقرأ كتب المفكرين وخاصة كتابات أنطونيو غرامشيوكان معجب بالرسائل التي كتبها وهو في السجن ويعتبرها أفضل الكتب الفكرية لأن من يكتب داخل السجون إنما يكتب بدمه . تعرف على نعمان حينما كان طالب في السنة الأولى بمدرسة الفنون وعلى الرغم من الفارق العمري بينهم حيث كان عثمان في السنة الأخيرة إلا أن علاقة صداقة نشأت بينهم سريعاً وعمل على تجنيد نعمان في صفوف الحزب ولم يبخل عليه بالعلم بل ساعده ليحتل مكانة عالية في صفوف التنظيم الطلابي آنذاك عبر علاقاته ونفوذه داخل الحزب الشيوعي حيث كان عثمان مسؤولاً عن مركزية الطلاب يفصل من يشاء لأسباب بسيطة وغير

ذات معنى ويساعد من يراه مناسباً ليترقى في عمل التنظيم .

لم تكن من عادات نعمان الاستيقاظ باكراً لكن بعد حوادث الاعتقالات التي طالت أصدقائه المقربين أصبح ينام ساعات قليلة ويقضي جزء كبير من الليل وهو يفكر في مستقبل الأيام . يجلس وهو يمسك كتاب للمفكر عبد العظيم أنيس الذي قضى معظم ليله يطالعه ويشتكي من حمى زائفة تمنعه الذهاب إلى مدرسة الفنون . يتسائل الجيلي عن حقيقة القبضة الأمنية التي تحيط باليسار ويذكر أسماء أشخاص مقربين منه سمع أخبار اعتقالهم فيتهرب من الإجابة وينكر معرفته بهم إلا من البعيد وإن علاقته معهم لا تتجاوز رد السلام . اليوم الذي فكر فيه بالخروج أعتقل على بعد خطوات من المنزل . يروي شهود عيان أن ثلاثة رجال بزي مدني وآخر بزي عسكري احاطوا به بشكل دائري واقتيد داخل سيارة عسكرية تحمل شباباً آخرين أعمارهم متقاربة .

أثارت القصة الفزع في نفوس الجميع فأمتنع شباب الحي عن التجمعات المسائية وتسائل الكل عن مصير نعمان المجهول . لم تمضي ساعات على حادثة اعتقاله إلا وكان البيت عبارة عن ساحة للتجمهر العام . حضر أهالي المنطقة ونسائها لمواساة الأسرة ولإشباع فضولهم وقضاء الوقت . يتسائلون :

– هل اقتيد إلى السجن ؟ ما تهمته ؟ من هؤلاء الرجال الغرباء ؟ .

نشط خيالهم في نسج القصص الخرافية لأنهم كانوا بسطاء وذوي تعليم محدود ومن طبقة وسطى. فجأة تحول الاعتقال إلى مناسبة أشبة بالعرس . يروي الشيوخ حكايات اعتقال متخيلة ويعيدون اجترار ذكرى ثورة أكتوبر 1964م والنفق الذي دخله السودان من بعدها حيث لاحرية ولا ديمقراطية وماتت شعارات الثورة بعدما تسلم العساكر حكم البلاد . هناك شيخ يعدد مساوئ الحكومة وآخر يشتكي من أمراض مزمنة والموت الذي تناساه وآخرين التقوا بعد فترة من الغياب فتراهم مندمجين في تفقد سنوات العمر . اتخذت النسوة من المناسبة فرصة للترويح عن أنفسهن ومعرفة من تزوجت ومن تطلقت وسرد مشاكلهن الشخصية وعرض زينتهن وثيابهن وتفحص البنات الصغار .

غابت قضية اعتقال نعمان عن المشهد ولم تغب عن بال الجيلي الذي كان يجلس مع كل الحاضرين على حدة ويسأله أن كان يعرف شخص يعمل في جهاز الأمن والمخابرات القومي أو أية مؤسسة عسكرية . استخدم سلطته كقيادي شاب في الحركة الإسلامية وحاول أن يصل لأية معلومات عن أخيه الأصغر . جمع عدد كبير من الأسماء وأماكن الاقامة . على مدار خمسة أيام لم يترك عسكري يمكن

الوصول إليه إلا وتحدث معه واعطاه مبلغاً من المال بغية التقصي عن أخبار أخيه والمساهمة في اطلاق سراحه . يعيد على مسامع بقية أفراد العائلة تحذيرات طويلة عند التعامل مع الضيوف والغرباء قائلاً:

– يجب أن ننفي صلة نعمان بأية نشاط ضد الدولة والتأكيد على أن علاقته باليسار مجرد شائعات والأمر لايتعدى حبه للاطلاع على كتاباتهم فلابد أن يكون هناك سوء تفاهم وخطأ عندما حدث الاعتقال . لأن معظم الزائرين ليسوا غير عناصر متخفية تعمل لصالح جهاز الأمن والمخابرات القومي .

تحركت العائلة في جميع الاتجاهات بحثاً عن واسطة للمساعدة وبلغ حجم الأموال التي اودعوها في أيدي العساكر والضباط مايوازي نفقة شهور لتقصي أخباره ولم يكن هناك غير ردود متفائلة تفيد بأن القضية برمتها ليست سوى غيمة وسرعان ما ستزول . لكن كلما تواترت الأنباء عن تضييق الحصار على المعسكر اليساري كان الأمل يخفت في قلوبهم . لا أحد يدري هل نجحت مساعيهم أم استجابت السماء لدعواتهم من أجل تحرير إبنهم فبعد انقضاء خمسة أيام خرج نعمان من المعتقل وكأنه بعث من الموت .

سرد على مسامع الرجال والضيوف الحاضرين كيف زجوا به مع

مجموعة من شباب تيار اليسار داخل مباني جهاز الأمن وعصبوا أعينهم وقيدوهم وعن حفلات التعذيب التي اقيمت على شرفهم وحكايات استجوابه الطويل والمرهق . قال :

– كنت في مبارزة مع المحقق دون أن أملك سلاحاً سوى اتقاد الذهن . أنكرت أصدقائي . أفكاري . انتمائي . هويتي . قضيتي وكدت أن أنكر وطني .

استغرق عدة أيام لعلاج جروح ظهره من أثر السياط وشفاء كدمات انتشرت في أجزاء متفرقة من جسده . غلف ذاته بحذر شديد كما أوضحت أدبيات اليسار عند التعامل مع هذه المواقف الخطيرة . أغلب رفاقه لازالوا داخل السجون ومن ضمنهم صديقه الفنان عثمان والبقية كانوا يعيشون في دوائر الخوف والترقب . إذا سار أحدهم في الطرقات لا يتخذ غير ظله شريك وصاحب ورفيق يعينه الحزب لحراسته . ابتعدوا عن مخالطة الناس والمؤسسات الرسمية ومزاولة كل نشاط غير ضروري . عالجوا جراحهم بطرقهم الخاصة دون اللجوء إلى المشافي . تنفسوا باستأذان وبنوا جدران عازلة وتحولوا لجواسيس . ينامون في صناديق ويأكلون حساء الثورة . رفعوا شعار نحن أو الذئاب . سافر جزء منهم خارج مدينة الخرطوم وتوزع آخرين في بيوت سرية . وضعوا لائحة طويلة بالمحظورات :

لا حديث في السياسة . لا تحمل كتب ذات طابع اشتراكي بمكان عام . خذ الحيطة والحذر من الرفاق وأرصد كل وجه غريب . تسلح بما يحمي حياتك أو تنكر بهوية مختلفة . كتبوا ألف لا ولا أخرى حتى كادوا أن يمتنعوا عن الحياة نفسها . كانوا أشبة بالعواصف التي لم يحن آوان نزولها . صنعوا معتقلات وسجون جديدة بأيديهم وسكنوها .

اتبع نعمان نصائح الحزب فأنشئ سجن بطريقة خاصة كشفت عن رهافة نفسه وميوله الرومانسية العميقة . خلف الإنسان الثائر كائن آخر غارق في أحلام مثالية ورومانسية ترجمها بإنشاء مرسم داخلي خاص بعد عمل استمر لأسابيع طويلة . وعكست لوحة متجول فوق بحر الضباب للفنان الالماني كاسبر ديفيد فريدريش المدرسة الفنية الحقيقية التي ينتمي إليها ونوع طبيعته البشرية . لم يسمح لأحد غريب أو صديق حتى آخر يوم له في السودان بدخول مرسمه ما عدا مريم التي رسم لها لوحة بقلم رصاص وعلقها على جدران المرسم ، كانت اللوحة تحفة حقيقية تكاد تنطق بالكلمات وابتسامة مريم فيها واسعة وتفاصيل وجهها بهية كأن شمس أشرقت عليها . أمضى نعمان ساعات بالقرب من نهر النيل متأملاً جريان الماء وانكسارات اللون عند غروب الشمس . درس الأشجار والعشب الأخضر المحيط بالنيل وأعاد تمثيله في ورق أبيض . أنكب

بعد ذلك فوق قطع من قماش أبيض يزينها بـألوان دافئـة . الفـن هـو الموضوع الوحيد الذي تحدث عنه خلال هذه المرحلـة مـن حياتـه حتى تخيل الآخرين أن سماء الخرطوم ستمطر أزهاراً زرقاء وسلال قمح . قال واصفاً تلك الفترة :

– عندما أرسم أصارع الطبيعـة وامتـزج بهـا أحـدد مـوقفي مـن الحياة وأحرث الأرض . من اللوحة تولد الحرية وأشعر بذاتي تتجزء عبر فصولها .

نشط الجيلي في نقل اخبار العالم والسياسة إليه ممـا عكـر صـفوه ودفعه لقضاء مزيد من الوقت عند نهر النيل. أصطحب في جـزء مـن جولاته مريم بغرض التمويه ولترافقـه في عزلتـه التـي فرضـها عليـه الحـزب وحالـة الـبلاد المضـطربة . صـور المـاء ومراكـب الصـيد المتهالكة قرب النهر وروائح السمك الطازج رسمت هـي الأخـرى أروع ذكريات مريم .

ذات ليل جاء خبر انقلاب عسـكري يتزعمـه اليسـار السـوداني . تمكنوا من السيطرة على البلاد لثلاثة أيام ثم ضـاع كـل شـئ سـريعاً واعتقل زعماؤهم فوراً وأعدموا بعد ذلك في محاكمات رتبـت عـلى عجل وبقيت مثار سخرية الوسط السياسي والمجتمعـي إلى الوقـت الراهن .

مرة أخرى اجتمعت العائلة عند ديوان محجوب بينما وقفت مريم بالخارج وعلامات الحيرة والقلق بادية عليها . ترتديثوب سوداني به نقوش حمراء ومستعدة لأي حدث مباغت وغير متوقع . عيناها مسمرة ناحية باب المنزل الرئيسي ترقباً لسماع طرقات مفاجئة أو مداهمة تشنها قوات عسكرية وأمنية . من الداخل تتعالى الأصوات وتصمت . لم تسمع تفاصيل المحادثة الساخنة بين أفراد العائلة إلا أن أذنها التقطت صراخ الجيلي وهو يقول بغضب :

-كل هذا بسبب الشيوعيين الذين يقضي وقته معهم . من المؤكد أن عناصر الأمن رصدته وماهي إلا ساعات وستأتي لاعتقاله ولا استبعد أن يأخذونا معه بسبب أفعاله المتهورة .

يرد نعمان كمن يتهرب من محاكمة قاسية :

-لست منتمي لجهة حزبية ولم أساهم بشئ خلال أيام الانقلاب الفائتة بل كنت مثلكم أتابع الأخبار وأشغل وقتي بالرسم .

قال الجيلي :

-منذ أذيع بيان انقلاب هاشم العطا عضو مجلس قيادة الثورة الوطنية حذرت الكل من أن الأيام القادمة ستكون سوداء . طلبت من نعمان وقتها مغادرة البيت لكن لا أحد ينصت إلا لصوت عقله .

يخرج محجوب من الديوان ويلقي نظرة حائرة على مريم ثم يتبعه الجميع . قال يومها :

– بدلاً من القاء اللوم والعتاب دعونا نتباحث فيما نحن فاعلين . حياة صغيرنا في خطر.

لم يسفر اجتماعهم عن أية نتائج عدا توبيخ نعمان وزرع مزيد من الخوف في نفوسهم . مع ذلك كانت سميرة تطمئن نفسها والآخرين قائلة :

– إن شاء الله لن يحصل شئ . لكن يجب أن يختفي عند أحد المعارف لضمان سلامته .

وافق الجميع ضمنياً على الاقتراح فيما سارع نعمان إلى تجهيز حقيبة سفر صغيرة . في الخارج كان الصمت و الغموض هو سيد المشهد على الرغم من توارد انباء عن استعادة الرئيس جعفر نميري مرة أخرى لمقاليد الحكم لكن لا شئ مؤكد . جميع المواطنين داخل منازلهم ويتبادلون الأخبار والإشاعات من خلف الأبواب والنوافذ الموارية .

عادت مريم بعد أن أحكمت غلق الباب وتحدثت إلى الجيران عن أحوال الانقلاب. قالت :

– الطرق خالية من المارة . صوت الرصاص لا يتوقف ولا أحد يعرف ماذا يحدث ؟ . اللهم إنا لا نسألك رد القضاء ولكن نسألك اللطف فيه .

الكل منهمك في التفكير حول المكان المناسب الذي يجب أن يقصده نعمان فجهاز الأمن سيبدأ بحثه من بيوت المعارف والأصدقاء . شاركت مريم بالتفكير وعبرت عن ذلك بقولها :

– صديقتي زينب من أيام معهد بخت الرضا تذكرونها جميعاً . فتاة وطنية وشجاعة . إذا بقى عند أهل بيتها لفترة من الزمن فلن يشك أحد بتواجده هناك . لا أعتقد أن أسرتها سترفض ما رأيكم ؟ .

شجعت سميرة الفكرة قائلة :

بيت زينب آمن وبعيدفي ولاية النيل الأبيض وهناك لن تصل يد الحكومة بسهولة .–

فوراً أنطلق نعمان ناحية مدينة الدويم في ولاية النيل الأبيض، امتدت الرحلة إلى نهاية العام 1971م .

***

كانت مريم أكبر أخوتها وحظيت بتعليم أساسي في خلوة دينية ضمن مجموعة تتألف من ثماني فتيات . ذاك الزمان لم تتبلور ملامح

لثقافة البنت بشكل عام ومن النادر أن تجد فتاة تجيد القراءة والكتابة ، كان تعليم البنات قضية لم تطرح بشكل أساسي عند البيوت السودانية وإلى الوقت الراهن لاتزال الأمية في المناطق الطرفية منتشرة بشكل كبير . كانت النسوة يحفظن القرآن الكريم داخل المنازل دون دراية بأصول الكتابة ويكتفون خلال حياتهن اليومية بالأعمال المنزلية الروتينية وما تبقى من وقت يتبعثر في الزيارات الأسرية والتنقل بين بيوت الجيران وتناقل أخبار النساء والنميمة . تتجمع مجموعة من البنات حول المذياع لمتابعة مسلسل درامي أو سماع أغنيات قديمة تعيد الإذاعة بثها .

اعتبرت العائلة أن الدراما الحقيقية تجسدت في بادئ أمرها من خلال مشاهد دينية صورها القرآن الكريم ومنذ عهد الانسان الأول كانت الكتب الدينية هي مصدر الدراما الحقيقي . قال محجوب مفسراً :

– تأملوا تسلسل أحداث الحكاية ووضوح دوافع القتل بين قابيل وهابيل والصراع بين الأخوين .ورواية أول قصة حب في التاريخ ذات طابع مأساوي وتراجيدي . تخيلوا مجئ غراب مجهول ليختم الحكاية ويقدم درس في آلية دفن الموتى لايزال متبعاً إلى الوقت الحاضر . هذا مشهد درامي أصيل وقصة متكاملة الجوانب .

القصص الدينية بلغة عصرية هي سينما الأسلاف والروايات التي تحفز الخيال وتقودهم إلى طريق النور . إنها أرشيف الانسان الأول وتحكى لنا طرق حياتهم وآليات تفكيرهم .

لاحقاً اصطحب أبنته إلى الفكي عباس لتعليمها أصول الدين والعلم وهي بنت الخامسة . أوجدت مريم لنفسها في عمر مبكر مكانة مميزة حيث اعتبرت بنظر الآخرين فتاة متعلمة مثقفة . منذ صغرها لفتت الأنظار بجمالها الغريب . ذات لون أسمر هادئ . تصف النساء بشرتها بالقهوة المذابة في الحليب . خليط من ملامح أفريقية وعربية . شعر متوسط الخشونة وعينان واسعتان . شفاة ممتلئة محددة كأن عسل أسود يسيل من جوانبها . يلاعبها الكبار ويقدمون لها الحلوى ومكعبات السكر الشئ الذي أثار خوف سميرة من أن تصاب أبنتها بالحسد فعمدت إلى رقيتها بآيات قرانية وحبسها بالبيت في سنوات طفولتها الأولى ، لكن بعد ارسالها لتلقي العلم سمح لها أن تتنقل بحرية داخل المنطقة .

ورث الفكي عباس الخلوة عن أبيه وأجداده . هي عالمه ، لا يعرف حياة غيرها . ينتهي الكون عند حدودها . يدرس فيها ما يقارب المائة طالب وتحت ظلال شجرة نيم كبيرة يتجمعون منذ بدايات الصباح في حلقات دائرية يرددون خلفه ما تيسر من كتاب الله

الحكيم . جميعهم ذكور ماعدا مريم ورفيقاتها لذا حظين بتعامل خاص : مثلاً لا يضربهن بشدة إذا تساهلت إحداهن في الحفظ ويترفق بعقابهن ولا يطلب منهن القيام بأعمال الخلوة الشاقة ويتركها للذكور . كان معلماً بارعاً ساعد التلاميذ على مدى سنوات في حفظ القرآن الكريم كاملاً . كرجل دين كانت شعبيته في المنطقة كبيرة وتكاد تبلغ مرحلة القداسة لما تركه أباه له من سمعة طيبة وتباهيه الدائم بالسلالة التي ينحدر منها ، يذكر لائحة طويلة من الأسماء تنتهي عند العباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ويخرج ورقة ممهورة بتوقيع شيوخ كبار يؤكدون فيها نسبه فلا يجرؤ أحد على التشكيك في مصداقيته بل يقدم له الأهالي أجود أنواع الطعام والعطايا في المناسبات المختلفة وينفقون عليه جزء من أموالهم وكان يرد عليهم شاكراً ويدعوا لهم بالرحمة والمغفرة . يناديه البعض بالشيخ و سيدنا أو مولانا وكل أسم يخطر على بالهم ذو دلالة مقدسة ، ساعدته الألقاب في مهنته وكسب لقمة العيش حيث كان يعتبر عند البعض نائب الله في الأرض والمتحدث بأسمه . حياته صفحة بيضاء وإن مسها سوء أو تلوثت ببقع سوداء فأن منزلته السامية في القلوب تخرس كل عقل ولسان يجرؤ على التشكيك فيه .

في فلك العالم السري للفكي عباس يدور عدد كبير من الشخوص لكن ثلاثة منهم كان لهم وضع خاص وهم : هاشم ، الصبي الذي

غادر مدينة الخرطوم إلى أقصى شمال السودان واستقر بأحدى القرى النائية منذ زمن بعيد . حينها كان والد الفكي يبذل قصارى جهده لتوريثه مهمة إدارة الخلوة وتعليمه مبادئ الأشراف على الطلاب . تعلم الفكي عباس إن من يفرض سيطرته على الجسد سيتحكم بالتالي على الروح والقناعات وسيمسك مصير الفرد بيده ، تعلم إن الخلوة سجن صغير وهو من يديرها . حاول تطبيق نظريته على الطلاب الصغار عن طريق التحرش الجنسي بهم ولم يجد معارضة بل خنوع وانكسار وذل كان بادياً على وجوههم . كان يتحسس أجساد التلاميذ بيده ويختار أجمل الذكور ليلهو بجسده . كثيراً ما كشف عوراتهم وترك يده تتحرك في أعضائهم الصغيره والرخوة ليقذف ماءه الأبيض بعد أن يصل مرحلة النشوة. خضع له كثير من الطلاب لأنهم لم يكونوا يفهمون ما يجري وبعضهم لم يجرؤ على الاعتراض ما عدا هاشم . عارضه بشده رغم صغر عمره ، فما كان من الفكي عباس ذات يوم إلا أن كسر أصبع هاشم الصغير كعقاب له على اهمال الحفظ ولأنه لم يسمح له بالاقتراب من جهازه التناسلي . وقتها تعاملت أسرة الفتى مع الموضوع كحدث عادي لأنهم من حث المعلم على هذا الفعل عبر اقتسام جسده ولحمه فيما بينهم وسمحوا للفكي أن يضربه بقسوة إذا رائ إن في ذلك مصلحة للصبي . قالوا العبارة المشهورة :

- لك اللحم ولنا العظم .

منذ ذاك الوقت أظهر هاشم دلائل الخضوع وصار ينفذ كل فعل يطلب منه وعيناه إلى الأسفل . روحه منكسره مثل جندي تعرض لتوبيخ عنيف مما دفع الفكي للتمادي ومحاولة كسر أصبع آخر ليظفر بجسده كاملاً . استفرد به ذات يوم لكن الولد انتفض فجأة وصرخ راكضاً خارج أسوار الخلوة وهدد بقتل معلمه واشعال النار بمنزله . على الرغم من إنه كان طفلاً إلا أن عائلته أخذت تهديده هذه المرة على محمل الجد وتوقفت عن بعثه لتلقي العلم . هاجرت الأسرة بعد ذلك بزمن قصير وغابت ملامح هاشم عن ذهن الفكي. لم يعد لأداء تجاربه على أجساد التلاميذ واكتفى بالحياة الهادئة التي أسسها عبر مؤسسة الزواج. تزوج ثلاث نساء وأنجب عدداً كبيراً من الأبناء .

فتح جرح المتعة السري عند رؤية مريم . روضها بأساليب الخلاوي خلال عام كامل وتمكن منها في أواخر العام التالي . استدرجها بعيداً عن أعين الطلاب في غرفة تنيرها الشموع . كشف جسمها ووضع ذكره على مؤخرتها الصغيرة وقذف ماءه الأبيض على دبرها ، بكت مريم وصرخت لكنه كتم صوتها بيده . تبلل ثوبها بقطرات الدم فغسله بالماء ليجف سريعاً حتى لا يفتضح أمره ونظف

جسدها بمنشفة نصف متسخة . انتظرت عارية في واحدة من غرف الخلوة وكان الفكي عباس يتأمل جسدها العاري مثل تمثال يوناني ويلاعبه بيديه ثم البسها ثوبها مع تحذير بعدم التحدث إلى أحد وإلا فأنه سيكسر أصبعها مثل ما فعل مع هاشم . لم تتحدث لأحد ، خافت ، سكنها الرعب . كرر العملية عدة مرات وفي كل مرة كان يهددها إذا تحدثت لأحد فأنه سيقتلها ويرسلها مباشرة إلى الجحيم لأنه يتحدث مع الرب مباشرة ولديه قدرات خارقة للطبيعة . أخبرها إنه قادر على التواصل مع ملوك الجن وسيأتون لسخطها وتحويلها إلى خنفساء صغيرة . وعدته مريم أن لا تثير غضبه أبداً فهو سيدها وشيخها كما قالت . حين أوشكت على حفظ القرآن الكريم خاف أن يفقدها وترحل عنه إلى الأبد . طلب منها الدخول إلى ذات الغرفة المظلمة وأشعل الشموع ، خلع ملابسها وقبلها في جميع أنحاء جسدها وأرقدها على الأرض عارية ، فض بكارتها بوحشية لاتتناسب مع عمرها الصغير ومسح قطرات الدم بيديه . نظفها كما يفعل دائماً وغسل جسدها ودموعها بالماء الحار .

أصيبت بعدها بحمى شديدة والقى المحيطين بالعائلة اللوم على الأعين الشريرة والأنفس الحسودة . الشخص الوحيد الذي أدرك ما حدث كان عوض ، فتى من خلفية اجتماعية واقتصادية متواضعة لم يكمل تعليمه وخرج مبكراً إلى فضاء السوق لكسب لقمة العيش.

تعرض هو الآخر للإغتصاب على يد الفكي عباس حين كان طفلاً . اكتفى الفكي عباس بهؤلاء الأفراد . خاف افتضاح أمره كما صرح :

– لن أمس فراشات بعدكم .

لاحقاً واصلت تعليمها مع أخوتها عن طريق المدارس الابتدائية . تساءلت هل سيصمد جمالها أمام امكانية الحصول على زوج ؟ . بدا مستقبلها غامضاً بعد انتهاك جسدها . الغريب في الأمر إنها لم تقطع علاقتها مع الفكي عباس بل استمرت بزيارته في أوقات متفرقة وتقديم العطايا . تسهر الليالي تصلي ودموع غزيرة تبلل ملابسها . تقول في مناجاتها بأن شعور النقص والفقد لايزال يلازمها وتحمل المسؤولية كاملة للفكي فبين يديه يكمن مستقبلها وتساءلت كيف لفرد أن ينسج شباكه حول شخص آخر فلا يتمكن من الإفلات منها ؟ ادركت بأن وجود المرأة بالمجتمع لا يكتمل خارج اطار الزواج .أرسلت مناجاة حارة إلى السماء فسمعت صوت يطمئنها ، نامت بعدها والصوت لا يزال يهمس في أذنها بأن الأشياء ستكون على مايرام . لو أمكن وصف عبارة المغلاة في الدين لتجسدت في شخصيتها . لم تميز بين المذاهب والتوجهات العقائدية بل تحول عقلها لشريط تسجيل يحفظ كل حديث ورواية وقصة إسلامية . لاتخوض أي حديث دون ذكر مرجعية دينية . إذا حدث وقامت بأي

فعل تردد البسملة وكذلك الأدعية بصوت عالي وهذا الشئ الذي رفع منزلتها بأعين الآخرين. هكذا قضت مريم فترة مراهقتها قبل التحول الكبير الذي حدث لها بعد دخولها لجامعة بخت الرضا وتأثرها ببعض أفكار اخيها نعمان .

اكملت الدراسة بجامعة بخت الرضا وعملت بتدريس البنات في المراحل الابتدائية اللغة الإنجليزية والتربية الإسلامية . لم تزل في سنوات صباها الأولى حين سميت بالشيخة تقديراً لجهودها في نشر التعليم الديني بين الفتيات ومساعدة النساء بالفتاوي وارشادهن . فتحت زاوية خاصة بالبيت لتعليم النساء كبيرات السن القراءة والكتابة ، تقوم فيها بدور المعلمة ، الطبيبة ، المصلحة الاجتماعية . اهتمت بالأعشاب والعلاج الشعبي واكتسبت خبرات من والدتها وعملت على تطويرها عن طريق القراءة والتجربة. تحكي لها الفتيات أسرارهن وأمنياتهن العميقة ويستشرنها في قضايا الأزواج وطرق التعامل معهم . لاتنقطع عنها الزيارات لحلاوة حديثها وتأمل وجهها الجميل . قالت واحدة من البنات :

– حين أنظر إليها أرى قمراً يتجول بيننا ، يضئ عتمة الليل ولا يكف عن نشر الضوء حتى في أكثر القلوب ظلمة . ترتب حياتنا كأنها ملاك هبط من الأعالي . هي ريح قادمة من أكثر الجبال علواً . اتخيل

أن الثلج ينزل على بلادنا كلما تحدثت أو ابتسمت ، يا لهذا الهدوء والبوح الذي يسكن صوتها .

تكفل نعمان برعاية مريم وتغيير طباعها بعد تخرجها من جامعة بخت الرضا . عندما ظهر التلفزيون لأول مرة في السودان خلال سبعينات القرن الماضي كثيراً ما خرج برفقتها إلى ميدان عبد المنعم بحي الخرطوم 2 لمشاهدة الدراما وبرامج البث المباشر . يتأكد من جلوسها بجوار أية سيدة ويذهب لتفقد الناس وتبادل الحديث الجانبي معهم . كان كل ما يقدم يطبع بذهن مريم وتصدقه . ذهلت من الشاشة الصغيرة التي تعرض أخبار وقصص عن العالم . حين تعود للمنزل تحكي لوالدتها تقارير مجلة ترانستل الألمانية وأساطير الحيوانات المنقرضة . ذات ليلة سألت والدها :

– تقول المجلة أن هناك إبل بيضاء . لونها مثل الحليب الصافي . ذات سنامين . تطير وتحلق بين السحاب . موجودة فقط في منطقة جبل مرة بإقليم دارفور هل هذا صحيح ؟ .

يندهش محجوب :

– إبل تطير ؟؟ !! لا أعرف .

ترد مريم :

- أريد رؤيتها هل يمكن أن يصحبنا نعمان أو الجيلي إلى هناك .

بعد التشاور استقر رائ محجوب على الجيلي وقال مجيباً مريم :

-لن تجدوا هناك أبل بيضاء تطير . لكن لا بأس برحلة إلى منطقة دارفور بهدف تغيير الأجواء والاستمتاع بالمناظر الخلابة . سأعمل على اكمال الترتيبات اللازمة .

تخلصت في بداية السبعينات من العالم الديني الذي صنعته لكنها ظلت تتابع خطوات الفكي عباس الذي أستمر بمناداتها بالشيخة أو الداعية رغم توقفه عن الالتصاق بجسدها .يمدحها أمام النساء ويدعوهن إلى ارسال بناتهن إليها . هل كان يحاول التكفير عن ذنب قديم ؟ أم شعر بعبء التحكم بشخص آخر ؟ أسئلة كثيرة جالت في خاطرها وطرحتها عليه عندما كانت تزوره بين حين وحين لكنها لم تتلقى إجابة شافية سوى تأكيده لها بأنه سيظل يرعاها دوماً كأبنته الصغيرة وينصحها بعدم الخوف من المستقبل ثم يودعها بقبلة باردة بلا طعم ولا يتبقى من أثرها غير رائحة عرق جلابيته البيضاء حين يقرب خدها من شفتيه .

سرعان ما نجحت البرامج الترفيهية التي صممها نعمان لتغيير طباع مريم . خرجت من دوائر الروحانيات التي انشئتها خلال أعوام كثيرة إلى فضاء العالم الواسع . رافقته إلى دور السينما بأيام العطلات

وكان يوجههـا إلى أفضـل العـروض ويعـود إلى المنـزل ليناقشـها في الأفلام واداء الممثلين . تحدثه عن الممثل جاك ليمون وتحكـي لـه كيف كادت أن تضحك بصوت عالي وهي تتابع أحداث فيلم الشقة ، تعيد رواية المشاهد وتفاصيل الفيلم وتنتقل للحديث في أيام أخـرى عن الممثلة أودري هيبورن تقلد رقصاتها وتحاكي حركاتها .

قضت مريم الليالي تحلم برجل يشاركها حياتها ويحمـل سـمات الوسيم جاك ليمون تصورته كائن من كوكب آخـر وتخيلـت نفسـها ترتدي البنطال والملابس الأنيقة مثل الجميلة هيبورن. تقول لأمها :

– هل يمكـن أن أصـبح نجمـة ذات يـوم ؟ أيعقـل أن أزور دول العالم الأخرى وأتعرف على شعوبها ؟ .

تضحك سميرة وتعدها بأن المستقبل دائماً ما يحمل المفاجـأت وإن أحلاماً صغيرة تبدو بعيدة المنال من الممكن أن تتحقق في الغـد . تفرح مريم وترقص .

يدخل عليهم محجوب مبشراً بإكمال ترتيب أمر الزيارة إلى جبل مرة لمدة شهر مع صديقه موسى الذي وافق على استضافتهم بمنزله . كان خريف عام 1976م حين وصلت مريم برفقة أخاهـا الجـيلي إلى ضواحي مدينة الفاشربولاية دارفور .

***

بعد تخرجها مباشرة من معهد بخت الرضا انخرطت مريم إضافة إلى عملها في تعليم الفتيات بكثير من البرامج ذات الطابع الثقافي التي ساهمت في تغيير رؤيتها عن العالم . ابتعدت عن دنيا الفكي عباس وخيالاته المريضة ومع ذلك لم تنفصل عنه تماماً . منذ تعهدها نعمان بالرعاية وهي لا تنقطع عن حضور عدد من المسرحيات بالمسرح القومي بمدينة أمدرمان ومتابعة الدراما التي تبثها الإذاعة القومية ، لكن عشقها الأول والأخير كان السينما التي عاشت عبر مشاهدها أروع فصول الحب في مخيلتها . كان فيلمها المفضل ذهب مع الريح بطولة فيفيان لي ، حضرته أكثر من أربع مرات ولم تكن تدري إن عند رحلتها إلى جبل مرة تنتظرها قصة حب عاصفة لا تقل عما يعرض في الشاشة الكبيرة .

كان محجوب قبل انتقاله إلى العاصمة الخرطوم يعمل في مشروع الجزيرة الزراعي ويملك مساحات من الأرض لابأس بها . كان من الطبقة الوسطى أو البرجوازية الصغيرة وتمكن من خلال ادخار بعض المال من بناء منزل كبير في أرقى أحياء الخرطوم ثم انتقلت العائلة كلها للعيش فيه . توسع في تجارته وقرر أن يستثمر في الثروة الحيوانية . باع ما يملك من أراضي وتحصل من الحكومة على مبالغ جيدة من المال . اشترى برأس ماله عدد كبير من الإبل والأبقار والخراف في اقليم دارفور التي سافر إليها خصيصاً بغرض الاستثمار

وهناك تعرف على صديقه موسى .

موسى ، رجل ابنوسي من مدينة الفاشر ، طويل القامة ، ذو بنية جسدية قوية وشعر قصير بني اللون ، يتحدث اللغة الدارفورية مع مزيج من العربية لكن كلامه كان مفهوم وواضح . يرتدي ملابس أهل الاقليم التقليدية وهي الجلابية البيضاء ويلف عمامة كبيرة حول رأسه . يتميز بالأمانة ومعروف في أوساط التجار بيده البيضاء ونزاهته . كان أول من استقبل محجوب بمنزله وعرفه على أفضل الطرق في تجارة الثروة الحيوانية ، ساعده في اختيار افضل الرعاة وامتدت مساعداته إلى اختيار المساحات الخضراء التي ترعى فيها حيواناته . كان بمثابه يده اليمنى ومن جانبه اعتبره محجوب بمثابة الأخ الذي لم تلده أمه .

نجح محجوب في تكوين ثروة هائلة وارتفع وضعه من الطبقة الوسطى إلى الطبقة البرجوازية في غضون عدة أعوام . كان يسافر إلى ولاية دارفور في فترات متباعدة ويقضي بقية وقته في الخرطوم يدير التجارة . تمكن بعد ذلك من اقناع موسى بالانتقال إلى الخرطوم وتأسيس شركة تجارية فيما بينهم يقتسمون رأس المال والارباح ، وهذا ما حدث بين الصديقين . نجحوا في بناء الشركة بعد جهد وكانوا يصدرون الثروة الحيوانية إلى مدينة الخرطوم ويتعاملون مع

الشركات الكبيرة المسؤولة عن استيراد الخراف وتوزيعها إلى دول الجوار خلال موسم الحج والاضاحي .

حين أبدت مريم رغبتها بالسفر إلى اقليم دارفور نسق محجوب الأمر مع صديق عمره موسى الذي طلب من أبنه الأكبر أحمد أن يرافقهم وبالتالي يوطد صلته مع الأسرة ويتعرف على الجيلي . قال موسى مُرحِباً :

– آن الوقت الذي يجب فيه أن نتشارك مع الأبناء المسؤولية .

رد عليه محجوب :

– لن نعيش لهم العمر كله . يجب أن يتعرفوا أكثرعلى بعضهم البعض ولنبدأ بالمهمات الصغيرة لا اريدها رحلة استجمام بقدر ما تكون رحلة عمل .

قال موسى :

– سأوكل إليهم بعض المهام البسيطة ومن ثم سيدخلون التجارة الكبيرة من أوسع أبوابها .

رحب محجوب بالفكرة خاصة وإنه كان يحاول إعداد واحد من أبنائه لمساعدته في شؤون التجارة فكان الجيلي هو المرشح المناسب نظراً لإلتزامه وشخصيته القيادية التي تتطلع نحو المستقبل بعزيمة .

أما نعمان فكان من وجهة نظر محجوب غارق في رسم اللوحات والثقافة ولا وقت لديه للانخراط في قضايا العمل وادارة رؤوس الأموال .

بعد اكتمال الترتيبات الضرورية وتوكيل أحمد والجيلي ببعض الأعمال استقلوا الطائرة ناحية مدينة الفاشر . كان أحمد هو أول رجل غريب تقضي معه مريم وقتاً طويلاً فهي لم تتعرف إلى الرجال إلا من خلال شاشة التلفزيون والسينما ، أحياناًتجلس معه بحضور أخيها الجيلي وأحيان أخرى بمفردهم . نزلوا ضيوفاً بمنزلهم الواسع وهناك كان يحدثها عن ثقافة الإقليم وعاداته الثقافية . يخبرها عن أغانيهم التراثية وينشد لها بصوت شجي مقاطع موسيقية مختلفة عن ثقافات دارفور الواسعة . يحدثها عن القبائل وعاداتهم ويصطحبها إلى السوق الكبير لرؤية الموروثات الثقافية والصناعات اليدوية ويشتري لها سلاسل من الصناعات المحلية ذات الألوان الزاهية التي تدخل الفرح إلى القلوب . ذات يوم رافقها لمشاهدة عرس بلدي وأخذ يشرح لها بإسهاب تفاصيل الزواج في دارفور وطقوسه ويقارن الاختلافات مع بقية اقاليم السودان وحتى داخل اقليم دارفور نفسه . ذهلت مريم بالعالم الجديد الذي تعرفت عليه . فاق تصورها وحدود معرفتها وفاق ما كانت تنشره مجله ترانستل الألمانية عن السودان . تعرفت على ثقافات جديدة ووجدت من

يحتويها . وجدت من يشعر بنبض قلبها وإن لم يصرح أحمد بذلك . نسيت الفكي عباس وعالمه المظلم الذي حبسها فيه . خرجت روحها لدائرة الضوء . لم تتدخر وسعاً في الحديث مع أحمد عن السينما والمسرح والروايات المصرية ، لم يكن الفتى مثقفاً لكنه مستمع جيد ، عرف ماذا تحب فأصطحبها إلى الفعاليات الثقافية التي كانت تقام في مدينة الفاشر والمكتبات . كانت سعيدة بالتعرف إلى عالم جديد ، وكان هو أكثر سعادة بهذه الفتاة الجميلة المثقفة والحساسة كما وصفها .

حين يغيب عنها تشتاق إليه وعندما تراه يزداد الشوق ويكبر . لم يكن أحمد يحمل ملامح الممثل جاك ليمون بل كان فتى دارفوري أصيل ، صاحب لون ابنوسي جميل ، وشعر خشن يدل على الجذور الأفريقية ، يرتدي الثوب التقليدي الأبيض وعمامة يلفها بطريقة دارفورية خالصة ويستخدمها كلثام يغطي به الوجه .مع ذلك شعرت بالحب ناحيته وعرفت إنها أخيراً وجدت الحب الحقيقي الذي تبحث عنه . روحه بحجم الشمس ونقاء سريرته واضح وجميل . أغلب الظن إنها أحبته بشدة خلال هذه الفترة .

تعلم قراءة الروايات من أجلها وذهب معها للمكتبة لمساعدته في اقتناء عدد من الكتب ، كانت تفكر فيه كثيراً بل تحول لمحور

حياتها . نسيت بكارتها المهتكة ودمائها التي سالت منذ زمن بعيد . نسيت تحرش الفكي عباس بجسدها الصغير وقبلاته الباردة . كانت تشتهي قبلة حارة من فتى جميل وقريب من عمرها .

لم يكن أحمد فتىً تقليدياً . يعشق الطبخ ويدخل المطبخ لمساعدتها ومساعدة أخواته البنات في تجهيز الأكل . يطهو لهنَّ الطعام الدارفوري اللذيذ . علمها أن الرجل مثل المرأة باستطاعته ادارة شؤون المنزل . كان يطمح من وراء حديثه إلى حياة هادئة يقضيها معها وكانت تطمح إلى حب عنيف ينسيها مرارة الماضي .

اعترفت له ذات ليلة هادئة بحبها . كانوا يجلسون وحدهم ويحدثها أحمد عن أسماء النجوم في السماء ، كسرت القواعد وقوانين المجتمع وبادرت بطرح الحب علانية . قالت له :

– ما اشعر به ناحيتك ليس شعور عادي بين الأصدقاء . اتسعت مساحات الود والاحترام بيننا وتحولت إلى أرض واسعة يسكنها الحب ، اللهفة ، الهيام . أنا أحبك .

لم يرد عليها واكتفى بنظرة خجولة وابتسامة بسيطة تحكي قصة حب كبيرة يحملها في قلبه ومشاعر لا تجرؤ الكلمات على وصفها . وعدها بأن الأيام ستكون كفيلة بتعهد هذا الحب ورعايته وواصل حديثه عن النجوم .

قال عند انتهاء الجلسة :

– كلما تأملتك شعرت بأني انسان غريب . من أنتي يا مريم ؟ كيف يحدث أن يسقط انسان بهذه السرعة في الحب دون مواعيد ؟ .

كان الجيلي غائباً أغلب الوقت من هذا الحديث الثقافي والعاطفي ومنهمك في انجاز ما كلفه به والده لذلك لم يلاحظ التغيرات التي طرأت على مريم ولا انتبه إلى نظراتها العاشقة .لم يكن أحمد يطمح إلى العمل في التجارة فهو متعلم تعليم متوسط . أفندي من بقايا ورثة الاستعمار الإنجليزي . يطمح إلى وظيفة بسيطة في إحدى الدوائر الحكومية . كان يعتقد إن العمل في التجارة يجلب الهموم والمشاكل التي لا يستطيع معالجتها والتعاطي معها . لم يكن وقتها خلاف هذه الخطوط العريضة قد رسم خطاً آخر لحياته لكن مريم احدثت تأثيراً ما في نفسه فأخذ يتقرب إلى الجيلي وساعده في تنفيذ بعض المهام وبدأ يتطلع إلى المستقبل بنظرة مختلفة . كان الغرض من عمله هو لفت نظر مريم وتعريفها به وتقديم نفسه إليها بصورة جادة وملتزمة . كانت مريم نقطة التحول في حياته .

ذهبوا لزيارة جبل مرة .كان المنظر بديعاً وفوق وصف مجلة ترانستل الألمانية .أنهار زرقاء جارية ومساحات باللون الأخضر لم يشاهدوا مثلها في حياتهم . كان الجبل بمثابة جنة على الأرض كما

وصفه أحمد ، تكثر به الشلالات مثل شلال ساورا الذي كانت مياهه تصدر هارموني وموسيقى عجيبة لم يسمعوا مثلها من قبل . تذكرت اسطوانات موزارت التي كان يأتي بها نعمان . قالت مريم :

– أنغام الشلال معزوفة فريدة لا تقل روعة عن معزوفات موزارت وباخ .

شاهدوا سرب من الطيور ملون بألوان قوس قزح يطير عالياًوأعطى السماء حلة غريبة . بحثوا عن الأبل التي تطير ولم يعثروا عليها . يومهم الأخير في الجبل ظهرت مجموعة من الأبل البيضاء بلون الحليب الصافي وذات سنامين وركضت بسرعة الريح حتى إنها لم تلامس الأرض واختفت عن الأنظار . صاح الجيلي :

– انظري يا مريم أبل تطير .

ردت بدهشة :

– إنها حقاً تطير .

وردد أحمد :

– تماماً كما وصفتها المجلة .

شعرت مريم يومها بإنها حققت حلم كبير .

لم يصارحها أحمد بالحب علانية ولم تقل هي شيئاً بعد ذلك يخرج

من أطار الأحاديث العامة . لكن كان هـو أول صـديق ذكـر تتعـرف عليه بعدما كانت تشعر بالخوف من التقرب إلى الذكور نتيجة ما فعله الفكي عباس بها . نمت الصداقة بينهما وتحولت لحب كبير. كانـت صدورهم تشتعل بالنار كلما اقتربا من بعضهم البعض . بانت ملامح الكسوف والخجل على وجهها كلما التقت أعينهم . عرف كلاهما إن شيئاً ما حدث .

بعد العـودة إلى مدينـة الخرطـوم وعنـدما كـان الجـيلي مشـغولاً بتخليص عدد من الاجراءات في المطار . أمسك أحمد يدها وقبلهـا ، ظل ممسكاً بها لدقيقة كاملة وعيناه تتأملان وجهها الصافي والبـرئ . حين أفلت يدها قال لها :

- أحبك .

استمرت قصة الحب بينهمـا إلى بـدايات العـام 1980م قبـل أن يعلم بها الناس والغرباء.

***

منذ اليوم الأول الذي طرقت فيه زينب باب صديقتها مريم شـعر الجيلي بإنجذاب عاطفي ناحيتها . قوة غريبـة شـدته إلى وجـه الفتـاة الريفية القادمة من مدينة الدويم بولاية النيل الأبـيض دون أن يعـرف

لذلك الانجذاب سبب وكأن صوت زينب كان يخرج من أعماقه وينابيه . كانت تشبه بنات الريف في الحسن والدلال والبساطة وتشير ملامحها القوية ونظراتها الحادة إلى ملامح بنات الخرطوم ،ملامحها خليط من الريف والمدينة والبدو والمتحضرين ومن قبائل لا يعرفها وبين هذا وذاك تاه الجيلي في سحرهاوضاع في تحديد تفاصيلها وجذورها . فتح لها الباب ووقف لعدة دقائق مبهوراً بجمالها ورائحتها القوية . ذات شعر أسود داكن تظهر خصلاته على جبينها من فوق الثوب السوداني الذي ترتديه . كان ثوباً أزرق بلون البحر الواسع . ذات عينان واسعتان كإنها تنتمي إلى واحدة من قصص ألف ليلة وليلة ، محددتان بالكحل الأسود بشكل كثيف وفم ممتلئ بالعسل والحلاوة . شعر الجيلي حين نظر إلى عيناها بأن ليل طويل يسحبه نحو الأسفل وإلى أعماق المجهول . كانت تحمل بكل عين قمراً ونجوماً وشعر بإنها غطت سماء الخرطوم بالضوء . ملامحها بارزة وقوية لاتنسى بسهولة . دهنت وجهها بمساحيق محلية ساعدت على بروزه وأعطته سحنة كانت خليط من الملامح الأفريقية والعربية . لم يتمكن يومها من تحديد ماهية رائحتها هل هي رائحة ياسمين ؟ هل هي عطر فرنسي فاخر ؟ أم هي رائحة جسدها الطبيعية ؟ كل ما فيها مربك : رائحتها مربكة ومثيرة . عيناها رائعة وبيضاء مثل الحليب . يداها ناعمة وحين صافحها كاد أن يقبلها على

الفور . شعر كأنه يصافح طفلاً صغيراً يريد أن يحتضنه . كانت تضج بالأنوثة .يكشف ثوبها عن قوام ممتلئ ، ذات نهدين بارزين كأنهما قطتان تلعبان تحت حمالة الصدر . ما أن رآها حتى سالت حبيبات من العرق البارد على جبينه . نظرت إليه مباشرة كأنها تحدثه بلغة العيون. التقت عيناهما وشعر بشوق وحب غريب لم يختبره الجيلي من قبل . لها طريقة خاصة عند النظر إلى الرجال ، تتفحصهم بسرعة ، تدرسهم ، تجذبهم إليها مثل ملكة النحل . كانت تسقطهم صرعى بنظرة واحدة من عينيها . وهذا ما حدث للجيلي الذي تسمر في مكانه عند الباب يتأمل هذه المخلوقة العجيبة . لا أحد يعرف هل تتعمد اتباع هذه الاستراتيجية أم أن الأمر برمته صدفة ؟ الشئ الوحيد المؤكد إن نظرة واحدة ومنذ اللحظات الأولى كانت كفيلة بإصابة قلب الجيلي . تعلق بها مثل طفل لايريد ترك لعبته . سرح لبرهة في جمالها الغريبقبل أن يقول لها تفضلي بالدخول .

جاءت يومها برفقة أخيها الوحيد الزبير . أوصلها لبيت صديقتها ومكثوا عندهم ثلاثة أيام للتعرف على عائلة مريم . كان ذلك مباشرة بعد الإنتهاء من الدراسة بمعهد بخت الرضا . كانت هي المرة الأولى التي تزور فيها زينب مدينة الخرطوم وجاءت للتعرف عليها وعلى أشهر معالمها . سمعت عنها قصصاً كثيرة وحكايات أقرب للأساطير من أهل مدينة الدويم الذين ذهبوا إليها . كانت تعرفها من

خلال الكلام عنها والكتب الدراسية التي صورت عاصمة السودان وكأنها مملكة فارسية قديمة . كانت رؤية مدينة الخرطوم في ذاك الزمان تعادل في يومنا هذا رؤية أشهر مدن العالم بالنسبة لسكان الأرياف وخاصة البنات . لكن أهل زينب لم يسمحوا لها بأكثر من ثلاثة أيام . حزنت لهذا القرار لكنها قررت الاستفادة من هذا الوقت والاستمتاع به وتركت المستقبل يقرر بشأن التعرف على العاصمة وأسرارها وخباياها .

خلال اليوم الأول لم تخرج من منزل مريم واكتفت بالراحة من تعب السفر وقليل من الزيارات إلى الجيران حين أصطحبتها مريم للتعرف عليهم . عندما علم الجيلي إن الزيارة قصيرة قال لأخته :

– لم أكن أعلم إنها ستقضي معنا هذا الوقت القصير . ما رأيك أن ننسق لها برنامج سريع يدخل الفرح إلى نفسها .

ردت مريم :

– لماذا أنت مهتم بالأمر ؟ لم أراك يوماً تجتهد في تنسيق البرامج الترفيهية لي فما بالك بصديقة جاءت من البعيد .

قال بسرعة ليداري اللهفة :

– تحدثت مع أخيها وتكونت بيننا بدايات صداقة أظنها ستدوم

طويلاً .

قالت مريم بفرح :

– إذا كان الأمر كذلك تحدث إليه . ورتب لنا موعداً بواحدة من دور السينما أو اسأل نعمان عن البرامج الثقافية التي تعرض حالياً .

اقتنى الجيلي جميع صحف الخرطوم الصادرة يومها . بحث عن الإعلانات وبرامج أين تسهر هذا المساء ؟ قرأها بعناية مع الزبير الذي أحتار في أمر هذا الرجل الذي لم يتحدث معه وظل مشغولاً بقراءة الصحف . قال :

– لم نأتي بغرض الترفيهة والتنزة . نريد أن نتعرف عليكم وكفى . كما لا أريد أن أحملك عبء التفكير في انشاء برنامج لنا .

لايرد عليه الجيلي .كان منهمك بالمطالعة ويحمل قلماً يضع به العلامات على ما يعجبه في الصحف . يعود فيقول :

– لابأس . ليس في الأمر تكليف بل هو واجب .

ينهض سريعاً وهو يحمل الصحف ناحية زينب ومريم . يطلب منهنَّ قراءة العلامات التي خطها بالقلم واختيار البرنامج المناسب . لم تكن زينب تحب المطالعة كثيراً فأختصرت الموضوع بالقول :

– سنترك لك حرية الاختيار .

كاد الجيلي أن يطير من الفرح لكنه تمالك نفسه وقال :

- إذن سنذهب غداً لجامعة الخرطوم .

وافق الجميع على الاقتراح في محاولة منهم لإرضاءه . اليوم التالي ذهبوا للجامعة وتجولوا فيها وتعرفوا على كلية القانون والشريعة التي تخرج منها الجيلي محامياً . عرفهم على الكليات المختلفة (الآداب .العلوم .الاقتصاد . الهندسة . العلوم الرياضية) كان يتحدث عن كل كلية وتاريخها وكأنه من بنى الجامعة ، شرح لهم تاريخ السودان وحدثهم عن غردون باشا مؤسس الجامعة . عرفهم بشارع المين حيث النشاط السياسي وكان الشارع من أهم معالم الجامعة ويجلس فيه الطلاب المنتمين للتنظيمات السياسية . صادفوا يومها ركن نقاش للطلبة الشيوعيين ، أنتهز الجيلي الفرصة لإبهارهم ودخل متحدثاً في فرصة لمناقشة الطرف الآخر ، تحدث عن كارل ماركس ونظريته الاقتصادية وملامح من النظرية الماركسية وتناول بالنقد العهد الستاليني ومعسكرات الاعتقال في الغولاغ التي حصدت أرواح مئات السوفييت . نعتهم بالحالمين بمجتمع اليوتوبيا حيث يتساوى الجميع وتنتفي الطبقات ويحكم العمال العالم وختم كلامه بالحديث عن أفضلية المجتمع المسلم ورؤية الشيخ حسن الترابي في بناء نموذج مثالي بدولة السودان . حين

رد عليه واحد من الطلبة الشيوعيين لم يجلس لسماع حديثه إلى النهاية كان يعرف إن السجالات بينهم سيطول أمدها وهو الآن يصارع فكرهم في المجتمع ككل بعدما تخرج من الجامعة . لكن مع ذلك نجح للمرة الأولى في جذب انتباه زينب لأنه كان خطيب سياسي لايشق له غبار وأرهب الطلاب بصوته العالي وطريقة طرحه لمواضيع النقاش .

انقضت الأيام الثلاث وكانت بداية عهد توثيق الصلات بين العائلات . لذلك حين اقترحت مريم أن يختبئ نعمان عند صديقتها زينب وجدت الفكرة القبول والاستحسان . غادر نعمان برفقة أخاه الجيلي عشية أيام الإنقلاب العسكري قاصداً مدينة الدويم حيث منزل زينب .

هناك وعلى عجل رتبت عائلة زينب مخزن قديم لا يدخله شخص غريب لإقامة نعمان بعيداً عن أنظار البوليس السياسي . روى الجيلي شوقه برؤية زينب لكنه غادر مسرعاً للخرطوم حتى لا يثير غيابه الشك . لم يتحدث معها على الرغم من انقضاء سنوات على الزيارة . ربما لازمه شعور بالخجل أو خاف من رد فعلها إذا قال لها أحبك أو كان يحتاج للوقت ليتأكد من شعوره . لا أحد يدري لماذا التزم الصمت طوال هذا الوقت الطويل ؟ .

مكث نعمان هناك دونالخروج إلى الضوء ، لم يكن يغادر المنزل ويكتفي بالنظر إلى العالم من خلال نافذة صغيرة لكن بعد انقضاء أشهر على حادثة الإنقلاب خرج ليكتشف مدينة الدويم وقال لأهل المنطقة إنه من أهل عائلة زينب وجاء لزيارتهم .

تكفل الزبير بتوفير سبل الراحة له ، كان يأتيه بالصحف والطعام . يجلس ويتحدث معه عن أحوال البلاد وإعدام قادة الإنقلاب .ذكر أسم القيادي الجنوبي الشيوعي جوزيف قرنق وعبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وحكى له عن سير المحاكمات وأخبارها وكيف أعدموا والتهم التي كانت موجهة لهم . وحكى له رواية عن عبد الخالق محجوب الذي وجد مختبئاً داخل القصر الجمهوري الذي يدير منه الرئيس جعفر نميري حكم البلاد وأستغرب من كيفية دخوله إلى القصر . قال نعمان بحزن والدموع تبلل وجهه :

– من هذا الذي يجرؤ على قتل الأنبياء ؟ .

ظل الزبير يواسيه ويخفف عنه الحزن ويحاول الحديث معه عن تجربته في السجن . يسأله بلطف :

– ما المقصود بمؤسسة السجن ؟ .

يقول نعمان :

– هذا سؤال معرفي ظل يعمل في الهامش . غير مفكر فيه وقضية ميتة عند من لم يختبره .على الرغم إن السجن موجود في مكان مرئي لعامة الشعب حيث غالباً ما تتواجد السجون بمركز المدينة وقلبها لتؤكد هندستها على المقدرة بإعتقال أي فرد ، لكن السجن مخفي في الوقت ذاته فلا أحد يعلم ماذا يحدث بداخله . يمكن اعتباره وطن داخل وطن . أرض داخل أرض . مملكة خاصة بالسلطة وموطئ قدمها الأول . مؤسسة لم تُعَرف بدقة ومع ذلك فهي حاضرة في المخيلة العامة بشكل كلاسيكي أو كما عرفتها الحكومة وروجت لها بإنها المكان المثالي لإيقاع عقوبة على إنسان ما وفي حال تقبل المجتمع لهذا التعريف تتخفى تكنولوجيا السلطة ولا تكشف عن آليات عملها وطرق استثمارها لأجساد المساجين . من هنا يجوز لي القول أن السجون مناطق غامضة ومجهولة نتعرف عليها عن طريق مشاهد خارجية تبث في مسلسلات التلفزيون ومن خلال الفنون المختلفة التي تعيد مسرحتها وانتاجها بما يتوافق مع خطاب الايديولوجيا السائد . أما العقاب في ذاته فمشهد ترفض السلطات أن يكون مرئياً مثل ساحر يفعل طقوسه في الخفاء ليحافظ على هيبته وسحر الغموض المحيط به .

يسأل الزبير مجدداً :

– ما الهدف من وجود السجن ؟ .

يجيب نعمان :

– يؤسس السجن في الذاكرة لمفهوم كلمة الذل بجميع أبعادها وحين ينقب السجين في أيامه لا يجد غير مشاهد وأحداث تؤصل هذا المعنى . يقضي ما تبقى من عمره باحثاً عن إنسانيته المهدورة والضائعة أبداً مثل قضيب الأم (مصطلح لاكاني – نسبة إلى المحلل النفسي جاك لاكان) وعند مجموعة من الناس فأن المجرم والمجنون محصن ضد الشعور بالألم لذا فأن جسده مباح وتلقائياً ينتزع منه خطابه .ونجد في مخيال منفذي العقوبات ضرورة ترويضهم لأن الخضوع الجسدي والمعنوي يجعل العقل يتقبل كل شئ دون مقاومة . منذ اللحظات الأولى تشكل كلمات محددة هوية السجين وتلازمه ما تبقى من عمره مثل كلمة خطر التي يكون رد الفعل عليها ابعاد الشخص وتقييده داخل مساحة محددة . يرتبط الوضع الجديد للسجين بظهور الأسئلة الوجودية الأولى بشكل صارخ على شاكلة : إذا كنت أشكل خطراً على الآخرين فلماذا أنا موجود ؟ هل أنا زائد عن الحاجة ؟ وإذا كنت زائداً فلماذا خلقت من البداية ؟ لا تقدم مؤسسة السجون إجابات بل تترك النزيل في صراع عنيف مع نفسه . وتعيد تشكيل هويته بناءً على مصطلحات وخطابات تنتجها السلطة . في حال خروج السجين إلى فضاء الحرية يقول مخاطباً ذاته « أنا شخص غير مرغوب فيه . أعد تعريف نفسك

. لأنتقم من العالم أو أحسم هذا الصراع الداخلي الصعب » . يحاول الخارج من مؤسسة السجن إلى الفضاء العام بناء عالم جديد من العدم لكن بأعماقه تبقى عاهة داخلية دائمة يحملها معه أينما ذهب وبعيداً عن قضية الأوراق الرسمية التي تطارده ما تبقى من عمره تسأله عيون الناس « كيف ستطفئ هذا الحريق الذي يتغذى على روحك ؟ » سيظل الخارج من السجن يعيش في خوف مستمر من افتضاح أمره وتعرضه للنبذ والاقصاء من المجتمع . سيبقى غريباً وملتصقاً بكلمات لها حجم الجبال على الصدر مثل : خطر . مجرم . مشبوه .

يسأل الزبير بإستغراب :

– إذن ما الحقيقة التي ينتجها السجن ؟ .

يقول نعمان بعد أن يتناول رشفة من كوب القهوة الساخن :

– في كثير من الحالات يعود الأفراد المطلق سراحهم إلى السجن في دورات مستمرة ، لأن وظيفة السجن تحولت لإنتاج مساجين يستمرون بالعودة إليه كأنه منزلهم ، يخرج السجن جماعات مشوهه ويفرض الهيمنة على الأجساد . السجناء هم جنود الدولة : تخضعهم لطاعتها . تعيد انتاجهم وفق ايديولوجيتها وبتدميرها لروحهم ومستقبلهم تعرضهم أمام العامة كنماذج لسيطرتها وقوتها . يغدو للعقاب إذن وظيفة اجتماعية وسياسية . ومن خلال أجساد

المساجين تخاطب السلطة عموم الشعب بلغة رمزية ومتخيلة مفادها إنها من تقبض على مصائرهم ويجب عليهم تقديم فروض الطاعة الكاملة لها وإلا سيتحولون لجنود سجناء . أما من يصدر العقوبات فلا يحاكم الجريمة في ذاتها ويسائلها إنما يتوجه إلى الفرد ومن هنا لا يتم الفصل بين الذات الإنسانية والإثم أو الجرم . السجن لا يكتفي بسلب الحرية بل يسرق لغة وخطاب السجناء ويعيد انتاجه . عند البحث في جميع الأوراق والكتب والمذكرات التي كتبت في وعن السجن نجد أن مؤلفيها ينتمون إلى طبقات ثقافية محددة : هم أما عاملين ونشطاء في الحقل السياسي أو لهم صوت اجتماعي وثقافي عالي أو أن المؤلفات كتبت في أزمنة الحروب حيث تنشط غالبية الشعب في سرد الوقائع المختلفة المتعلقة بواقع السجون . خلاف ذلك لم أجد منابر يتحدث من خلالها السجناء عن تجاربهم . مطالبهم . حقوقهمو ما تعرضوا له من تعذيب جسدي ونفسي .

يحك الزبير رأسه متعجباً ويقول :

– لماذا نخاف من السجن ؟

يضحك نعمان ويقول بعد تفكير :

– السجن ليس مجرد سلاسل من حديد تربط الفرد وتقيد

حريته داخل مساحة جغرافية محددة بل هو سلسلة مكونة من أفكار الدولة تربط من خلالها المجتمع بنمط معيشة يتماشى مع أهدافها . السجن لاينزع حرية الفرد فقط بل الراحة . التفكير . الشرف . وينزع الصور الجميلة من الخيال ويعيد صياغة الغرائز الإنسانية . لاتكون الثورة السياسية والمجتمعية كاملة إلا إذا فتحت سؤال السجون بشكل علني للنقاش العام وإلا فأن ثمة دكتاتور يتخفى ورائها . نحن نخاف السجن بقدر خوفنا من الدولة الحاكمة ، السجن مؤسسة مثل المستشفى والمدرسة والملجأ والمسجد وبقية المؤسسات الخاضعة لإدارة السلطة . لكن نحن نخاف منه لأنه يلصق بالفرد تهم تتجاوز العقوبة فالسجين يظل بنظر الآخرين مريض وفاشل اجتماعياً حتى إذا عاد إلى ممارسة الفضيلة ولا يساعده السجن بالشعور الإنساني . يأخذ السجن من بقية المؤسسات أبشع صفاتها ويبيعها للنزلاء مجاناً ، هكذا يعمل اقتصاد السلطة الذي يستثمر في الأجساد . إن القانون وجد ليعاد بناءه فوق مسرح العقوبات : كل عقوبة هي إعادة ترميم للقانون الذي تم اختراقه . نحن نخاف السجون لأنها متاحف الدولة تعرض أجساد المحكومين من خلالها وتنشر فكرها أيضاً عن طريق منفذي العقوبات أو بمعنى أدق عن طريق أدواتها البشرية . نحن نخاف لأن السجن لاينتج فرد يطالب بالحقوق والاصلاح في المجتمع وإنما ينتج شخص خاضع للعادات

والتقاليد العميقة ومنفذ للأوامر . إنه يسلب كل صوت ويسرق تفاصيل الحياة الجميلة حتى الغناء . في السجن لايوجد غير الصراع للبقاء على قيد الحياة والهرب من الحبس الإنفرادي داخل الزنازين وعصا السجان . نحن نخافه لأن فيه تعلق المشانق ويحيا العدم .

يشاركه الزبير القهوة ويجلس معتدلاً وهو يسأل بحيرة :

– ما تعريفك للعدالة ؟

يضحك نعمان من هذا السؤال الصعب لكن يرد قائلاً :

– ينتهي دور العدالة عند المحاكمة وتسجيل الاعتراف العلني بالواقعة . ثم تتدخل الدولة والسلطة بعدها وتفرض الجزاء كفعل منفصل عن العدالة . يتم فرض الجزاء في الخفاء عن طريق السجن ، وبإخفاء جسد المجرم تتخفى وجوه الجريمة التي تترك دون سؤال . لذلك تعاود الجريمة الظهور مثل نوبات البرد عبر أجساد مختلفة . يعمل السجن على إعادة انتاج الجريمة ويردها إلى جسد المجرم .

ساهمت الحوارات التي كان يديرها الزبير مع نعمان في تخفيف الآمه على من ماتوا من قيادات اليسار السوداني وحزنه على رفاقه في السجون . قضى الليالي يجيب عن أسئلة على شاكلة « ما هو العقاب؟» « ماذا تريد السلطة من السجين ؟ » و غيرها من الأسئلة

التي ساعدت نعمان على نسيان مصابه .

تعلم الزبير مبادئ السياسة والفكر منذ التقى الجيلي وبدأ الحديث معه وفي كل مرة كان يصطحب أخته زينب لملاقاة مريم كان يجلس مع الجيلي ونعمان ويدير حديثاً ذا طابع سياسي وثقافي . لم يكن صاحب توجه معين فأستقطبه الجيلي إلى الحركة الإسلامية التي كانت أقرب إلى ميوله الفكرية . كان كادر حركة ويساعد في العمل الجماهيري للحركة ويحفظ أناشيدها وأدبياتها عن ظهر قلب . رجل تظهر طبائع الريف في سلوكه وحديثه وكرمه ذو ذقن حليق وشعر كثيف وعيون بنية اللون . كان بديناً ويحب الأكل وتجمعات الأهل والأصحاب ، ذو فكر تقليدي عند التعامل مع النساء لذلك لم يسمح لأخته زينب بالعمل مع الاتحاد النسائي بعد تخرجها من الجامعة بحجة إن جميع النسوة اللآتي كنَّ فيه شيوعيات ومن أحزاب سياسية معارضة وهو لم يكن يحب عمل النساء بالسياسة والشأن العام . يحاول أن يبدو بمظهر العارف بكل شئ ولكن لم يكن يحب القراءة والمعرفة العميقة ويكتفي بجمع المعلومات عن طريق السمع والكلام مع الآخرين . تحول في غضون سنوات إلى كادر سياسي مخلص للحركة الإسلامية على الرغم من إنه لم يترقى في صفوف التنظيم مثل الجيلي حيث لم يكن يملك المهارات القيادية اللازمة ولا الكاريزما التي تؤهله لقيادة الجماهير لكن كان يشعر

بالسعادة من العالم الجديد الذي انتمى إليه . يحب نعمان مثل أخيه الصغير وكثيراً ما رافقه إلى مصنع الجبن الذي كان يعمل فيه بمدينة الدويم حيث كان مشرفاً على العمال وصديق مقرب إليهم يعاملهم بلطف ولين ويعالج الأخطاء بحكمة عند وقوعها .

فرح نعمان بهذه الزيارات وشرح له الزبير طرق صناعة الجبن بالتفصيل وحدثه عن عادات وتقاليد أهل المنطقة . كان نعمان يقضي وقته بالقراءة والحديث إلى العمال الذين كانوا يرحبون بحضوره ووجد فيهم من ينتمي إلى الحزب الشيوعي فكان يتسلم منهم المنشورات السرية التي يطبعها الحزب ويقرأها ويتلقى التعليمات عن طريقهم . بعد فترة من مكوثه عند أهل زينب خرج إلى دائرة الضوء وكان يقضي أجزاء من أيامه في بيوت العمال الشيوعيين ولا يظل في منزل واحد لأكثر من شهر خوفاً من الملاحقة الأمنية وكما كانت تأتي تعليمات الحزب التي يجتهد نعمان في تنفيذها حرفياً . ساعد العمال الشيوعيين نعمان في التعرف أكثر على المعالم الجغرافية لمدينة الدويم وتعرف من خلالهم على البيوت الآمنة التي يجب أن يقصدها حال وقوع الخطر ومن يجب الحذر منهم لأنهم عملاء لجهاز الأمن والمخابرات القومي . رسم في تلك الفترة أجمل اللوحات وأهدى زينب لوحه رسمها لها بالألوان وزينها بتوقيعه فكانت تبدو مثل موناليزا أخرى بإبتسامتها الهادئة ووجهها الذي

يشع بالأنوثة والجمال ولونها الأسمر الجذاب .

مع بدايات العام 1972م عاد إلى الخرطوم ليواصل دراسته بالسنة الأخيرة بمدرسة الفنون . كانت القبضة الأمنية وقتها على اليسار أقل شدة فقضى نعمان عهد السبعينات في سلام بعيداً عن النشاط السياسي العلني . لم يعد يصدر ضوضاء واكتفى بمجالسة الفنانين مثل صديق عمره عثمان الذي خرج هو الآخر من المعتقل سليماً . تحول لكادر حزب سري وركز جهده بالفن والثقافة .

نشيد الأفاعي

أريد أن أرى وجه أمي . منذ فتحت عيوني على الدنيا وأنا أحلم بها ، أتخيلها في وجوه المسافرين والعابرين . أتمثل طيفها كل يوم وأتحدث إليه . عندما بدأ صاموبل بيتر برواية ماذا حدث لها رأيتها في السجن بصورة واضحة ، أصبحت تأتيني في المنام وهي ترتدي ثوب أبيض وتقف خلف القضبان الحديدية . رأيتها تفتح الباب الحديدي بمفتاح كبير وتخرج إلى ساحة واسعة كلها عشب أخضر ورأيت نفسي أصب لها اللبن في كوب كبير وتناولني كرات بطاطس ساخنة وهي تضحك وتنادي : يا ولدي يا ولدي لاتغيب مثل الشمس . استيقظت والعرق البارد يبلل ملابسي . لم أفق من تأثير الحلم عندما وجدت صاموبل بيتر يمد يده بالماء ، شربت وأنا أحكي له تفاصيل الرؤية . قلت :

– منذ بدأت سرد حكايتك عن أمي وأنا أراها بوضوح ، هل من تفسير لذلك ؟ .

أطلق تنهيده طويلة من صدره وقال :

– لابد أن تزور منزلها وترى زينب وسميرة . هي تريدك أن تسامحهما وتبتسم عندما تكون في منزلها .

حدثته عن رغبتي في الانتقام لأمي ومحاسبة من فعلوا بها الشر وأوصولها إلى السجن دون ذنب . لكن ما دور زينب صديقة عمرها التي ساعدت نعمان ؟ وماذا فعلت سميرة ؟ هل قتلت أمي أخيها الجيلي أو والدها محجوب ؟ لربما انتقمت من الفكي عباس على ما فعله بها . لا أدري ماذا فعلت أمي وما دور هؤلاء الأشخاص في حياتها ، أسئلة كثيرة واجابات قليلة اصابتني بصداع رهيب . قلت :

– من المسؤول عما حدث لها ؟ لماذا قضت عمرها بين السجون وهي البريئة ؟ .

قال صامويل بيتر وهو يناولني كوب قهوة ليزيل عني آثار الصداع :

– كل شخص يتم الحكم عليه في مرحلة ما من حياته وأمك حكم عليها بالسجن سبع سنوات وقضت باقي عمرها في سجن

مصحة كوبر . أعلم إنه حكم قاسي لكنها إرادة الرب وعلينا أن نرضى بها . الله هو الحب الذي بحثت عنه مريم بنت محجوب طوال عمرها .

سكت لحظات ثم عاد يقول وهو يفكر :

– دلالة اللون الأبيض الذي تظهر به في الأحلام يعني إنها في الجنة أو في مكان جميل حيث وجدت السعادة والخبز والحرية وعليك بعد أن تعرف القصة كاملة أن تمضي في حياتك دون التفكير في الانتقام .

فتح صامويل بيتر الكتاب المقدس وقرأ مجتزأ من رسالة بولس الرسول إلى أهل أفسس 4 : 30 :

– لاَ تُحْزِنُوا رُوحَ اللهِ الْقُدُّوسَ الَّذِي بِهِ خُتِمْتُمْ لِيَوْمِ الْفدَاءِ . لِيُرْفَعْ مِنْ بَيْنِكُمْ كُلُّ مَرَارَةٍ وَسَخَطٍ وَغَضَبٍ وَصِيَاحٍ وَتَجْدِيفٍ مَعَ كُلِّ خُبْثٍ .وَكُونُوا لُطَفَاءَ بَعْضُكُمْ نَحْوَ بَعْضٍ ، شَفُوقِينَ مُتَسَامِحِينَ كَمَا سَامَحَكُمُ اللهُ أَيْضاً فِي الْمَسِيحِ .

عندما طلبت من ادارة سجن أم درمان للنساء أن اطلع على الأشيف رفضوا بحجة إنها معلومات سرية ، أخبرتهم أني احتاج إلى ملف والدتي لألقي نظرة على صورتها لأنني لم أرها إلا عندما كنت

طفلاً رضيعاً وإنها حالة انسانية ويمكن أن يعتبروني استثناء لكنهم ظلوا على موقفهم الرافض ولم تنجح محاولاتي الكثيرة معهم وباءت جميعها بالفشل . ذهبت أبحث عنها في مصحة كوبر للأمراض النفسية والعقلية وهناك لم أجد لها صورة ولا أثر ، لم يتبقى منها في المصحة إلا رائحة قديمة وذكرى بأذهان الممرضات اللآتي كنَّ يشرفن عليها . وعدني صامويل بيتر أن أحصل على صورة لأمي وذكرني باللوحة التي رسمها خالي نعمان . قال :

– لاتزال لوحة مريم بنت محجوب موجودة في مرسم نعمان يمكن أن تحصل عليها . أنت على موعد مع الفرح .

استمعت إليه بعد أن تناولت وجبة افطار من جنوب السودان وواصل هو سرد ما تبقى من حكاية أمي .

***

الحب عند زينب يعني المصلحة والتقدم للإمام وليس مجرد مشاعر عاطفية ورومانسية بين طرفين . اعتبرت تلك العواطف والاحاسيس النابعة من القلب مجرد مضيعة للوقت وهدر للطاقة وعلامة ضعف ، نعم ، يجب أن يكلل الحب بالزواج لكن عليه أولاً أن يكون مدروساً وبحسابات تسطر تفاصيلها في صفحات مستقبل واعد . عانت مثل بنات جيلها اللآتي سكنوا الأرياف والمدن البعيدة

من تسلط العائلة عليها ومعاملتها بقسوة وخشونة . كانوا يمنعونها من الخروج أبعد من المساحات المتعارف عليها داخل مدينة الدويم فأقتصرت حركتها على معهد بخت الرضا والمنزل . منذ ميلادها لم تغادر ولاية النيل الأبيض ولم تذهب في زيارات للجيران لوحدها ، كان لابد أن تكون مع واحدة من أخواتها أو أمها كما تنص عادات أهل المنطقة . درست بولاية النيل الأبيض كل مراحلها التعليمية وعندما تخرجت عملت مدرسة للغة الإنجليزية وتعطي دروس خاصة للبنات لكسب المال . كان طموحها كبيراً بأن تصبح سيدة مجتمع راقي ذات يوم .تمنت لو تحضر المناسبات الاجتماعية الضخمة وتتناول كوكتيل من الخمر دون أن تسكر ، يقبل الرجال يدها وهم يصافحونها ، تتمنى في أوقات وحدتها أن يتملقها الجميع من أجل تمرير صفقات تجارية . ذهب خيالها بعيداً وكانت ترى في الحب فرصة لتحقيق أحلامها . تقدم لخطبتها رجال كثيرون من أهل المنطقة ذوي تعليم متواضع وحالة اجتماعية ميسورة لكنها كانت ترفض لأنها لم تكن تريد حبس نفسها بولاية النيل الأبيض وعيش حياة متواضعة وهادئة مثل الفتيات في سنها اللآتي تزوجن منذ عمر مبكر . كانت تطمح بالرحيل إلى العاصمة الخرطوم والسكن بمنزل كبير . حلمت كثيراً بحياة العاصمة والتسكع في طرقاتها جوار شارع النيل . اعتقدت أن جمالها سيكون

كفيلاً بجلب عريس غني وشاب جميل ذو مستقبل مشرق وعلى أمل تحقيق هذه الوعود انتظرت طويلاً إلى أن رأت الجيلي يتحدث في جامعة الخرطوم عن السياسة . كانت تدرك إنها بوابة الدخول إلى مقاليد الحكم والسيطرة على مصائر الأفرادومن يومها عرفت هدفها لكنها لم تصارح الجيلي بشئ عن أفكارها وأحلامها وفضلت أن تلتزم الصمت . تكررت زيارتها إلى منزل صديقتها مريم وبادلتها الأخيرة بالمثل لكن الجيلي ظل صامتاً هو الآخر إلى حين انتهاء قصة نعمان بعد حادثة الإنقلاب التي قادها التيار اليساري وحلفائهم الشيوعيين.

كان الجيلي يأتي متخفياً عن أعين البوليس السياسي لتفقد أحوال أخيه نعمان بين حين وحين وعندما تكون الأحوال هادئة في البلاد . يحدثه عن أحوال الأسرة ويحمل إليه كتب المفكرين الشيوعيين مثل لوي ألتوسير و جورج لوكاش . يعرف إن أخاه يحب الإطلاع عليها وكان يحمل إليه الورق الأبيض والألوان ليرسم في منفاه الاختياري .

بتلك الفترة تحدث إلى زينب عن حبه الذي كتمه في صدره لسنوات طويلة . أخبرها إنه وقع في حبها منذ اللحظة الأولى التي وقفت فيها بباب منزلهم وعن روعة الثوب الأزرق الذي كانت ترتديه قال :

– ذكرني بالبحر ونهر النيل ساعة الشروق كنتي يومها مثل حورية تمشي على قدمين .

سرد الجيلي على مسامعها في الأوقات التي كان يختلي بها قصص الحب القديمة التي جمعت قيس بن الملوح وليلي العامرية وعنتر بن شداد وعبلة . كان يعيد على مسامعها ما يحفظه من الشعر العربي القديم قائلاً :

– لوكان قلبي معي ما اخترت غيركم

ولا رضيت سواكم في الهوى بدلاً .

ويمازحها مقتبساً عن قيس بن الملوح :

– أغرك مني أن حبك قاتلي

وأنك مهما تأمري القلب يفعل .

كانت زينب تستمع لحديثه وترسم ابتسامة اغراء على وجهها . تصيب ابتسامتها وضحكتها الحلوة قلب الجيلي الذي يرد عليها وهو يداري حبه قائلاً :

– أمر على الديار ديار ليلى

أقبل ذا الجدار وذا الجدار

وما حب الجدار شغفن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

تقول زينب وهي تضحك :

– هل ستظل طوال الوقت تقرأ الشعر وتتغزل في جمالي وانوثتي ؟

يقول الجيلي سريعاً :

– لأجلك قضيت الليل كله أحفظ القصائد وأقرأ المعلقات . عيناك هما بيت الشعر الذي لم يقال بعد .

حدثها عن الفروقات بين بنات الريف والمدينة وكيف إن الأخيرات متطلبات وذوات عقل فارغ لكن فتاة الريف أو البلد كما يصفها متمسكة بالتقاليد السودانية الأصيلة وهي من يتمناها للزواج . طلب منها أن تنتظره إلى أن يتشكل مستقبله السياسي فهو الآن قيادي شاب في حزب اسلامي كبير وبعد حادثة الإنقلاب العسكري ستتغير الأجواء السياسية بالبلاد وسيتقلد مناصب رفيعة في حزبه كرمز شبابي ، قال لها أن الشيخ حسن الترابي يحبه وتنبأ له بمستقبل زاهر . أخبرها إن الطريق إلى القمة صعب ويتطلب سنوات من الجهد والمشقة والعمل المتواصل وإن عليها الإنتظار لسنوات أخرى قبل أن يتقدم ويخطبها . حدثها عن المال وشرح لها آلية

استثمار أبيه في الثروة الحيوانية بولاية دارفور والتقدم الذي يحرزه بعد أن تحول ليده اليمنى في العمل . حكى لها كيف يدير رؤوس الأموال ويساعد أباه بالعمل وعن السفر المتواصل بين الولايات المختلفة لحضور الفعاليات السياسية وتنظيم عمل القواعد الجماهيرية والسفر إلى ولاية دارفور البعيدة لإدارة شؤون الرعاة والمال هناك . داعب خيالها بالكلام عن المستقبل المشرق وشرح لها نتائج أفعاله في الوقت الحاضر لكن طلب منها أن تصبر وتعده بالحب والأبناء القادمين الذين سيحملون ملامحها الجميلة . قالت زينب :

– سأنتظرك . وسأشرق على حياتك كما تشرق الشمس وسيكون الضوء هو دليلنا نحو حياة حلوة وجميلة .

وعدته بكل ما طلب منها . كانت صادقة ولم تتلاعب بعواطفه كما تفعل مع بقية الرجال لأنها وجدت في حديثه الحلم الذي كانت تسعى إليه ، المال بجوار السياسة . السلطة والنفوذ .

كان الجيلي شاباً جميلاً تتمناه الفتيات وتحلم به البنات في أحلام اليقظة . لم تخف زينب من تقدم سنوات العمر وأثرها على شبابها وجمالها ، وعدت نفسها بالحصول على كل ما تتمناه طالما هو مخلص لها ويفعل كل ذلك من أجلها كما قال . وهكذا انقضت

السبعينات وهما يكافحان ويعملان بجد إلى أن حل عام 1983م حيث أقر الرئيس السوداني جعفر نميري قوانين الشريعة الإسلامية وتحالف مع الحزب الإسلاميوتقلد الجيلي منصب رفيع بجوار الشيخ حسن الترابي في الحكومة . حينها تقدم لخطبتها وتزوجها بعد أن جمع مع والده ثروة مالية كبيرة وحصل على منصب سياسي هام . أما نعمان لم يعجبه الوضع الذي آلت إليه البلاد لأنه كان يدعوا للعلمانية وقال معلقاً على هذه الأحداث :

– تحالف الأخوان المسلمين مع نميري وتحالف تجار الدين مع تجار الأموال والأرواح والسلاح . إن الوطن ينحدر إلى مستوى خطير .

أما الحب عند مريم فكان يعني الرومانسية الحالمة التي تأخذ الروح ناحية المحيط . كان يعني لها الأمل والاشتياق والهيام بصورة المحبوب . سألها أحمد ذات يوم عن أكثر شعور سئ بالدنيا . قالت :

– العطش .

رد عليها بضحكة حلوة :

– إذن .. سأبني لك محيط .

أصيبت مريم بالخجل وهي تقول :

– محيط ! إنه كبير .

يقول أحمد :

– أنتي تستحقين الدنيا ومملكة كاملة تحت الماء يا عروس كل الأوقات .

منذ العام 1976م لم تتوقف عن الشعور بالحب . كتبت خطابات إلى أحمد كانت تسلمها له باليد حين يأتي لمنزلهم بحجة التباحث في العمل مع الجيلي . قالت في خطاب :

– منذ تعرفت عليك وقلبي يخفق بالحب والأمل . تعرفت من خلال حديثي معك على ثقافة أهل دارفور وتوسعت مداركي . أنت أول رجل تعرفت عليه عن قرب وحبك سكن فؤادي في لحظة هي الأبد .

ينهي أحمد أعماله سريعاً ويعود ليقرأ خطابات مريم ويرسم على وجهه ابتسامة كبيرة . الحب عند مريم شعور بالإمان ورجل ينقذها من دوامة الفكي عباس الذي يطاردها في أحلامها . لم تعترف لأحمد بشئ عما حدث في الماضيولم تحدثه عن بكارتها الضائعة منذ أزمنة الطفولة ولا حفلات التحرش التي كان يقيمها الفكي فوق جسدها . لم تتحدث لأي شخص عن كيف حفظت القرآن وكان لحمها تحت رحمة يد معلمها ؟ خافت أن تفقده وتفقد الشعور النبيل الذي شعرت

به لأول مرة في حياتها .

من ناحيته أحبها أحمد لدرجة الجنون . طار عقله بفتاة العرب التي صرحت له بحبها . لم يكن يتحمل نار شوقها ولهيب عذاب الحب وحتى يكون قريب منها ترك الوظيفة الحكومية وتخلى عن العمل السهل . ساعد والده موسى بالتجارة وتعلم أصولها بعد جهد . نجح في تكوين شركة منفصلة وأهتم بتجارة المنتجات الدارفورية. كان يجمع المنتجات المحلية ويبيعها في ولايات السودان المختلفة وبرأس ماله إفتتح مصنع صغير بمدينة الفاشر للصناعات اليدوية . ذات صيف دعا مريم ونعمان لزيارته بنهاية عقد السبعينات وتحدث أمامهم كمثقف كبير عن العمال وحقوقهم ودعم البروليتاريا والفقراء والتفاوت الطبقي وأثره على سكان المنطقة والأقليم ودور المصنع في تحسين حياة العمال ورفع مستوى وعيهم وثقافتهم . أستشهد بكارل ماركس ولينين بين كل جملة وأخرى وأثار اعجاب نعمان الذي صفق من روعة المشهد وكاد يبكي وهو يقول :

– برافو أحمد .. برافو .

دخل قلب مريم من أوسع أبوابه .

كان أحمديتخيلها عارية فيتصبب جسده عرقاً ويمسك منديل ورقي ويمسح جبينه البارد . يتخيل نفسه ينزع عنها ثيابها بهدوء

وببطء قطعة تلو قطعة فيرى شروق جسدها وهي تتجرد من ملابسها الجميلة . قضى ليالي طويلة يتأملها في مخيلته ويداعبها بساعات الليل البارد والناس نيام . يتخيل نفسه يمارس معها الجنس من الأمام فيحرك قضيبه يمنة ويسرة ، يبالغ في الضغط عليه إلى أن يقذف ماءه الأبيض ، يتنفس بسرعة وصورتها لاتزال ماثلة أمامه . يرفع يده في الهواء ويتخيل نفسه يضع يده على خدها ويمررها عليه . تخيلها في مختلف المواضع الجنسية الممكنة والمستحيلة . في خياله كل الصور جائزة : يضع ذكره في دبرها فيسمع صوت تأوهاتها ، تخيل نفسه يتذوق دمائها الشهرية فيمتلئ فمه بأكواب من عسل ولبن . منذ تعرف على مريم لم يسمح لأخواته البنات أو أمه بغسل فراشه وتنظيفه، كان يخجل من البلل كأنه طفل صغير ، ومن يومها لم يتوقف عن تبليل ملاءته كل ليلة . كانت عالمه الخيالي الذي يهرب إليه من جحيم الواقع ، هذا العالم الواقعي الذي لم يعد يطيق العيش فيه بدون مريم .

من جانبها فكرت مريم به طويلاً . افتقدته بلياليي وحدتها وكتبت له كثير من الرسائل الغرامية وأرسلتها عن طريق هيئة البريد وحين يطل أحمد عليها يأتي بالروايات والأزهار والغابات والحكايا . حول حياتها لجنة على الأرض . ما عادت تحلم بالممثل جاك ليمونلأنها وجدت فارس أحلامها . أجتهد أحمد في عمله وتمكن من بناء منزل

صغير بمدينة أمدرمان وتمنى أن يتوج مريم ملكة وعروساً يقاسمها ما تبقى من حياته .أخيراً تقدم لخطبتها علانية صيف العام 1980م .

***

رفضت عائلة مريم زواجها من أحمد ما عدا نعمان لأنه من أصول دارفورية ، تفاجأت الأسرة بعلاقة الحب التي جمعت الطرفين وغضبوا من هذا الحب لأن العلاقات التي جمعتهم بعائلة موسى كانت لاتتعدى نطاق العمل التجاري . كانت عائلة مريم تنتمي لواحدة من أكبر القبائل العربية بالبلاد التي تعود أصولها لشمال السودان ، عرفت هذه القبيلة بنظرتها الدونية لبعض الأجناس الثقافية وكانوا لايسمحون بتزويج بناتهم لغرباء إلا من بعض القبائل التي توازيهم في العلو والمكانة الاجتماعية . كانت الاختلافات الثقافية والعادات والتقاليد كبيرة بين العائلتين لذلك جاء الرفض سريعاً وعنيفاً . قال الجيلي :

– كنت أطمع إلى تزويج مريم من واحد من الأخوان في الحزب الإسلامي .

وقالت سميرة :

– هناك ألف رجل من القبائل العربية يتمنى فتاة جميلة مثل مريم .

لم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل أن أهل الحي علموا بشأن الخطوبة من الفتى الدارفوري فتحدثوا بأقبح الكلام ذو الدلالة العنصرية لأنهم كانوا من قبائل وأصول ثقافية متقاربة ولايختلطون بالقبائل التي تعود جذورها إلى أفريقيا . عرف الجميع بقصة الحب التي جمعت بين مريم وأحمد فأنطلقت الإشاعات حول مريم مثل « من أين تعرف هذا الولد ؟ » « كيف ترضى الزواج من عبد ؟ ترغب بالزواج من عبيد وتسكنهم معنا ! » « تريد أن تلطخ سمعة أسرتها وتجلب لهم العار » . قالت لها سيدة من نساء الجيران :

– يا مريم أنتي أجمل بنات الحي وأكثرهن ثقافة وعلماً لماذا لاتتزوجين من رجل عربي ؟ لاأفهم سبب اختيارك لرجل أسود من القبائل الأفريقية ، لابد إنه صنع لك سحراً وربط قلبك بالأعمال السوداء الشريرة .

قالت لها مريم :

– الحب لا يعرف قبيلة إنه ينتمي إلى جميع قبائل الإنسانية . عندما نعشق نحن لا نعرف الأسباب ونكتشف الوقوع في الهوى بعد أن يتمكن من قلوبنا ويسكنها .

عادت السيدة لتقول :

– لكن في الحب يجب أن نقدم تنازلات ونضحي لأجل من

نحبهم ونخاف أن نفقدهم . إذا تزوجتي أحمد ستخسرين عالمك الذي تعرفيه وقبيلتك التي تنتمي إليها .

لكن مريم لم تكن ترغب في التضحية بحبها . لن تكون كبش فداء مرة أخرى .

أتهمها البعض إنها على علاقة جنسية معه وصلت إلى حد الحمل سفاحاً لذلك تريد فتاة بجمالها أن تتزوج رجل من دارفور. أتهموا أحمد بأنه ضحك على عقلها وعلى العائلة وكان يسرق أموالهم . تعالت الأصوات وأصابت مريم وعائلتها بالحزن قال رجل من القبيلة :

- لو كنت مكان أخوتها لقتلتها قبل أن تتزوج من غريب .

وقال رجل آخر :

- هذا آخر تعليم البنات لايوجد غير الحسرة والعار .

خجل الجيلي من مواقف أخته في الدفاع عن حبها ومن الإشاعات التي تقال عنها وتمس كرامته ولم يكن يدري إن علاقة العمل التي جمعته بأحمد كانت تجري من خلف كواليسها قصة حب كبيرة ، شعر بأنه كان مغفل خاصة بعد أن بحث في غرفة مريم ووجد رسائل حب كتبها أحمد بخط يده . منع مريم من مقابلتهوهددها

بالقتل إذا فكرت فيه أو نطقت أسمه .عاشت تلك الفترة في ظلام كبير وأنكسر قلبها ، تحطم الحب عند أول صخرة . كما أن محجوب فض الشركة التجارية مع موسى ووهن قلبه بعد سماعه للأقاويل التي مست شرف إبنته الوحيدة فسقط مريضاً ولازم الفراش الأبيض لفترة من الزمن ومنع مريم من أن تقوم على تمريضه ورعايته . أما سميرة فما عادت تلتقي نساء الحي اللآتي أكلن لحمها جهراً وعلانية بالنميمة ، كانت كلما قابلت واحدة منهن تسألها عن اخبار الخطوبة والزواج وتعيد على مسامعها أقوال بقية النسوة . تعاملت سميرة مع القضية وكأن أبنتها جلبت العار لهم .وبختها وهي تبكي بدموعها ، قالت : - صرت اخجل من المشي في الشارع ومن التواجد في تجمعات النساء بسببك يا مريم .

عائلة موسى سحبت عرض الخطوبة ورجعوا بالهدايا الثمينة التي اشتروها لهذه المناسبة . شعروا بأن كرامتهم جرحت . تحول محجوب وموسى في يوم وليلة لأعداء وانهارت الأعمال التجارية والمالية التي جمعتهم لسنوات طويلة في ساعات .غضب أحمد وأقربائه من مواقف رجال القبيلة العربيةونعتوا عائلة مريم بالعرب الهجين وعبارات عنصرية أخرى .

الوحيد الذي حاول التقريب بين وجهات النظر كان نعمان . ترك

أعماله وكتبه وتفرغ لحل القضية . كان يحب مثل هذه المواضيع ذات البعد الثقافي والاجتماعي . بدأ بمواساة مريم وتطييب خاطرها . قال :

– لاتحزني يا أختي سأعمل جاهداً إلى أن تكتمل مراسم الزواج . لايمكن أن أسمح للتفكير البرجوازي والعنصري أن ينتصر علينا .

سافر بعدها إلى ولاية دارفور . أحسنت عائلة موسى استضافته لأنها تعرف كرم أخلاقه وحسن نيته في استرضائهم . جلس مع أحمد عند المصنع الصغير وحدثه عن دور الزواج في تقارب الثقافات والبنية الاجتماعية للقبائل السودانية والتكوين البنيوي لطبيعة العلاقات البشرية ورائ الماركسية في الزواج وتكوين الأسرة والانتاج ، لم يفهم أحمد كثير من حدثيه لكنه كان عند نهاية كل لقاء يضحك ويهدأ باله .نجح نعمان بعد محاولات عديدة في تهدئة روح أحمد وأعاد إليها الأمل والحب مجدداً . تحدث مع موسى وأخوته عن التقارب بين أبناء البلد الواحد وقال لهم أن الحب أقوى رباط يجمع بين طرفين . تأكد قبل أن يسافر أن الرضا والسكينة عادت إلى قلوبهم . نجح في امتصاص غضبهم بأسلوبه الجميل ووعدهم إنه لن يزوج مريم لشخص آخر غير أحمد . قال له :

– لتبقى عانساً طوال حياتها لن أزوجها لأحد غيرك .

جلس مع والده محجوب ساعات طويلة يسهر على علاجه مع الجيلي .مكث الليالي يناقشهم بقضية مريم ويخبرهم بضرورة عدم الاهتمام بالشائعات والتفكير بمستقبل البنت . مع مرور الوقت نجح بتغيير رأيهم . قال محجوب :

– عرفت موسى منذ سنوات طويلة كان بمثابة أخي فكيف رفضت تزويج أبنه من مريم ؟ لعلها كانت ساعة غضب .

تحمس نعمان وتحدث عن الدماء الجديدة والأضرار الناتجة عن زواج الأقارب . بنهاية المطاف خرجت جميع الأطراف راضية ماعدا الجيلي وسميرة التي ظلت إلى لحظة عقد القران غاضبة من زواج أحمد ومريم . قالت :

– لا أعرف كيف ستعيش أبنتي مع هذا الدارفوري العبد ؟ .

لم يكترث أحد برأيها وتمت مراسم الزواج بنجاح وبتوفيق من الرب كما قال موسى .

كان نعمان صاحب شخصية قيادية تشكلت منذ الصغر . إحتواه صديقه أستاذ علم الأحياء سعيد وهو لايزال في المراحل الثانوية. روى له قصص مكسيم غوركيو خاصة رائعته الأم التي ناضلت بجانب أبنها وحملت راية الثورة بعد أن سقط شهيداً . قرأ نعمان

رواية الأموهو لايزال مراهقاً ، كانت ساشابطلة الرواية تعني بالنسبة له كل نساء الأرض ويرى ملامحها بوجه مريم . تعرف من خلال الأستاذ سعيد إلى الشاعر الروسي فلاديمير مایاكوفسكي وكان يحفظ أجزاء من قصيدته في رثاء لينين . يرددها قائلاً :

– أيها الزمن سأشرع في تاريخ لينين

لقد حان اليوم للألم القاصم

أن يستحيل أسى ووعياً ونوراً

أيها الزمن أعد عبارات لينين العاصفة ،

أعلينا أن نذوب في دموعنا الغزيرة

عندما يكون لينين ، دائماً ، أعظم من أي حي آخر ؟

يقرأها بفخر يملأ صدره . أدخر مالاً مع رفيق دربه عثمان وأشترى رواية كيف سقينا الفولاذ للكاتب الروسي نيقولاي أوستروفسكي وأنضم لصفوف الحزب الشيوعي بتلك الفترة .لكن نعمان منذ سنوات المراهقة كان يعمل بالثانويات تحت لواء تنظيم الجبهة الديمقراطية التابع للحزب اليساري وقرأ في تلك الفترة أدبيات اليسار المختلفة من جميع أنحاء العالم . بعد نكبة الحزب وحادثة الإنقلاب طلب تحويله إلى فئة الخلايا النائمة وتفرغ للفن

والثقافة . قال مخاطباً أستاذ سعيد:

– لايزال السودان بلد حديث العهد لم يمضي على استقلالنا وتأسيس دولة حديثة مائة عام والثقافة وحدها هي القادرة على وضع حجر الأساس للتفاهم والحوار بين مكونات الشعب المختلفة .

يبتسم أستاذ سعيد ويقول :

– تفكير جيد يا نعمان لابد من وجود مناهج ثقافية بجانب منهج التحليل الماركسي لصراع الطبقات لدراسة الواقع السوداني الذي تلعب فيه القبائل الثقافية والنزعات العنصرية دوراً كبيراً .

أنضم أستاذ سعيد إلى صفوف العمل العام منذ زمان بعيد ونشط في نقابات المعلمين التي كانت تناهض الاستعمار سراً دون أن يكشف عن هويته . اختار أن ينتظم في صفوف الحزب الشيوعي وكان عضواً بارزاً عمل بكل جهد حتى اصبح رئيس فرعية المعلمين بالحزب عن ولاية الخرطوم . كان صاحب رأس كبير ولون يميل إلى السواد ، رجل كبير في السن ويملأ الشعر الأبيض رأسه ، طويل القامة وذا صوت هادئ يدل على عمق التفكير وخبرة سنوات ، متزوج وله أبناء . كان لايتجول إلا وهو يحمل كتاباً باللغة الانجليزية سواء كان الكتاب متعلق بمجال تخصصه أو كتاب فكري . اثناء ممارسته لمهنة التدريس كان يختار الطلاب المقربين إليه

ويجندهم في المراحل الثانوية للعمل في صفوف الحزب وينظمهم في مجموعات ويساعدهم في تكوين نقابات الطلبة ومن ضمن هؤلاء التلاميذ كان نعمان الذي رأى فيه حماسة الشباب وحب المعرفة واكتشاف كل جديد . ساعده وهو طفل صغير عن طريق الروايات والأدب الاشتراكي بتكوين فكره واختيار المسار السياسي الذي سار عليه بقية حياته . عندما تخرج نعمان من المرحلة الثانوية لم يقطع علاقته الاجتماعية مع أستاذ سعيد ، يزوره بالمناسبات الرسمية والأعياد وكلما أوشك على اتخاذ قرار مصيري يذهب إلى منزله ويناقشه ويستمع إلى رأيه بالموضوع .كانت العلاقة بينهما أشبة بالعلاقة بين أب وأبنه ، أخ كبير بولد صغير لايزال يتلمس درب الحياة .

***

بعد زواجها من الجيلي انتقلت زينب للعيش في العاصمة الخرطوم كما كانت تتمنى لكن الواقع لم يكن جميلاً كما تصورته في خيالها . ظلت محبوسة بين جدران المنزل مع الجيلي مثل بقية النساء ، لا نشاطات اجتماعية ، لا مشاركة في الفعاليات الثقافية والنسوية . بحكم طبيعته الإسلامية أصبح الجيلي متشدد معها ولم يسمح لها بالمشاركة في الأعمال التجارية والمالية ، كان يعطيها المال بحساب

ولايشترى لها الفساتين والملابس التي تتمناها . عاشت معه كما تعيش سيدة في زمن الجاهلية الأولى تسهر على خدمته دون أن يكون لها رائ . كانت تخرج فقط لتقف في صفوف الخبز والغاز التي انتشرت بشوارع الخرطوم آنذاك . تحرق الشمس لونها الأسمر الجميل ويغطي التراب وجهها من الزحام وحركة الناس ، ترتدي ملابس قديمة وتستعمل عطور رخيصة تتزين بها لتحافظ على جمالها .تعود إلى المنزل لتطبخ للعائلة كلها خاصة في غياب مريم مع زوجها وسكنهم بمدينة أمدرمان . لم تجد ما تتفاخر به وسط النساء إلا منصب زوجها بجوار الشيخ حسن الترابي لأنها لم تكن تملك الذهب أو المجوهرات وتزيد سرعة ضربات قلبها وتتسع حدقتا عيناها كلما رأت امرأة تلبس ذهب أو حُلي غالية الثمن ، تحزن لأن يدها خالية من الذهب وتشتعل الغيرة في نفسها من بقية النسوة . لم يعد الجيلي يحدثها بأمور السياسة لأنها ليست قضية المرأة كما يقول، يطلب منها الاهتمام بالأطفال القادمين ومراعاة شؤون المنزل . غضبت من الوضع العام بالبلاد مثل حال معظم الشعب السوداني بتلك الفترة . تورمت قدمها بسبب الوقوف عند صفوف الخبزوعندما تخرج لشراء مستلزمات الطعام تجد نفسها تقف في صف طويل . ضعف جسدها وترهل من العمل والمرض والطعام القليل والسنوات القاسية . ما عاد للحب شهوة وسحر ، يمارس

الجيلي معها الجنس كأداء واجب ولايشكرها أو يعبر عن اعجابه بها بقبلة كما كان يفعل بأزمنة الزواج الأولى .

نهشت الغيرة نفسها من مريم وحسدتها على حياتها الهادئة والأموال التي ينفقها أحمد عليها ، كلما تراها تسئ إليها وترمي لها الكلمات الجارحة لترضي غرورها الأنثوي . عندما كانت طالبة بمعهد بخت الرضا شاركت زينب بالنشاطات والجمعيات الاجتماعية والثقافية في الجامعة وانخرطت بالعمل مع الاتحاد النسائي السوداني . كانت ترى في هذه الفعاليات بداية لمستقبل واعد حين تأتي إلى الخرطوم ، لكنها فشلت في تحقيق ما سعت له طوال عمرها .

عاد أهل الحي لأقاويلهم القديمة بحق مريم وحق زوجها ، كانوا جماعة من الناس تحركهم الأحقاد والعنصرية ووقت الفراغ الذي يمارسون فيه هوايتهم بنشر الإشاعات. ولدت مريمطفل بتلك الفترة الحرجة من تاريخ السودان ، لم يستقبل الأهل المولود كما يجب لأن الخلافات عادت لتنشئ بين العائلتين ووصلت إلى حد القطيعة والهجران .

أما أحمد وعلى الرغم من حبه لمريم لكنه لم يتصالح أبداً مع فكرة وجود رجل سبقه إليها ، كان يشعر إنه تم خداعه لأنها لم تصارحه منذ

البداية بما فعله الفكي عباس بجسدها ، حين اكتشف منذ الليلة الأولى إنها ليست عذراء ظن إنها تخدعه وتخونه مع رجل آخر ، لكنها حدثته عن طفولتها وما جرى فيها وخوفها من الفقد واليتم إذا هي تحدثت بهذه القضية . عاش صراعاً عنيفاً من أثر خلافات العائلة وزوجته التي لم تخبره بحقيقة الأمر ولسان والدتها سميرة التي تنعته بأقبح الألفاظ حين كان يأتي لزيارتها . يكره أن يمس أحدهم جذوره وثقافته الدارفورية ، كاد أن يخبرها في نوبات غضبه إن أبنتها ليست فتاة وإنه رجل تم خداعه . شعر بإن هويته لم تعد لها وجود . ذات يوم عادت مريم ولم تجد أحداً بالمنزل غير الرياح ، ترك لها أحمد رسالة يخبرها بأنه أخذ الطفل وسافر إلى فرنسا ويخطط لبداية حياة جديدة بعيداً عن السودان وصراع القبائل الأفريقية والعربية .أرسل لها ورقة الطلاق ورتب مع واحد من أخوته لتسوية بقية الإجراءات . عادت مريم لمنزل والدتها تحمل لقب مطلقة وعاشت مع جحيم زينب التي وجدت فيها فرصة للإنتقام من خيبة أملها وانكسار حلمها بالتحول لسيدة مجتمع راقي .

مع تزايد حالات الفقر وانتشار صفوف الخبز والغاز بجميع أنحاء البلاد ظهرت بوادر ثورة واحتجاج . أعتقل نعمان والجيلي مع آخرين من أحزاب سياسية مختلفة لتحريضهم الشعب على الثورة . مكثوا بالمعتقل لفترة من الزمن . كان المعتقلين يمضون الوقت بعد

الإنتهاء من جلسات الإستجواب والتعذيب يتناقشون بشؤون الوطن . يسأل أحدهم :

– هل العقوبة فعل انساني ؟

يجيب الجيلي بعد تفكير :

– تتحالف السلطة مع المجتمع وتحوله لآداة لإنزال العقاب بجسد من تراه مجرم ومتمرد . إنها تعتدي لا على الجسد فقط وإنما يطول العقاب ليصل إلى القلب ، الدماغ ، لم يعد الجسد وحده هو هدف السلطة بل الروح والفكر أيضاً . تعامل السلطة الفرد كعنصر وليس كائن بشري لديه مشاعر وأحاسيس ، لذا فأن مبدأ تخفيف العقاب يقوم على الشفقة غير المرغوب فيها . لاتوجد عقوبات مخففة وإنسانية وإنما سلطة تمارس عملها من أجل حماية مصالحها وحماية خطاب الطبقات التي تدافع عنها .

يسأل معتقل سياسي :

– ما فائدة العقوبة ؟ وهل توجد خطيئة أصلية أو جريمة كبرى ؟

ينهض نعمان متكاسلاً من أثر الإرهاق ويقول :

– من النادر أن تأتي العقوبات بأثر ايجابي . فالمجرم في حالة دخوله السجن يخرج وهو أكثر جرماً وإن لم يرتكب فعل يؤذي

المجتمع . لست مثالياً أدعو إلى ترك الأفعال التي أتفق المجتمع على إنها سيئة تمر دون محاسبة ، لكن هناك فرق بين كلمة عقاب ومحاسبة ومعالجة ، وأقصد بالأخيرة علاج تبعات الفعل السئ وتشخيصه . ربما ينجح العقاب في التقليل من فعل الجرائم الكبرى والمنظمة لكنه لايساعد في حوادث الأفعال الصغيرة . المقصود بالعقاب ابعاد الفرد من المجتمع والتعامل معه مثل ما تفعل الطبيعة مع الوحوش . لم ينجح الإنسان إلى وقتنا الحالي في فرض ما يسمى بالعقوبة الإنسانية ، فالكلمتان تتعارضان مع بعضهما البعض . منذ تجسد الرب في شكل الإنسان كان اقتصاد العقوبات وحشي يخدم سلطة عليا . الآن هو خفيف ، غير مرئي ، وموجود في خانة النسيان لأنه يخدم سلطة الدولة والايديولوجيا . لاتوجد خطيئة أصلية أو جريمة كبرى إلا بمقدار ما يسمح الخيال البشري ، هي كلمات تسمح بالتحكم بالمستقبل وخطاب أنتج ليتحكم بحدود العقل البشري .

يتدخل معتقل سياسي في النقاش ويقول موجهاً حديثه إلى نعمان:

– هل السجن منطقة غامضة ؟

يتنفس نعمان بصعوبة وهو يتناول شئ من الفول ويعقبه بكوب

ماء قبل أن يجيب قائلاً :

– في الماضي كان المساجين الأقوياء يأخذون للعمل على السفن أو خدمة الحكومة أو للتعذيب المباشر ، أما المشردين والشحاذين وضعاف البنية كان يلقى بهم في السجون وكانت هذه بداية ولادة السجن في التاريخ . السجن ليس مؤسسة ثابتة لاتتحرك بل فيه ينتج خطاب السلطة وهناك لايصمت الكلام والمشاريع وآليات تطويع الجسد . يختلف السجن عن بقية المؤسسات الانضباطية في أنه يمنع كل عمل وفكر من شأنه المساهمة في تحسين واقع السجون . السجن عالم غامض يسعى لعدم خلق جمهور متماسك من المساجين ويخنق أي فكرة من شأنها أن توحدهم . يهيمن السجن على المساجين ويغدو جزء منهم والذين يقضون فيه فترات طويلة يستحوذ عليهم . تفرض السجون سلطتها على الأجساد عن طريق نظام يومي صارم من العمل والانضباط فيصبح الجسد طيعاً وينفذ كل ما تريد السلطة القيام به من الأعمال . يتدخل السجن في كل تفاصيل السجين ، يشبه الأمر الأهتمام بقطع الحجارة حجراً حجراً إلى أن يكتمل بناء الجدار . إنه يتدخل في الأشياء الصغيرة التي تبني الكينونة ويحطمها . ولأجل هذه الأشياء الصغيرة والعابرة وجدت الحرية .

اندلعت الثورة عام 1985م وشاركت فيها قطاعات واسعة من

الشعب السوداني وسقط حكم الرئيس جعفر نميري . خرج نعمان والجيلي وبقية المعتقلين السياسيين من السجن. أستلم المجلس العسكري بقيادة المشير سوار الدهب حكم البلاد وأعلن عن فترة انتقالية مهدت لإنتخابات عام 1986م التي جاءت بالسيد الصادق المهدي رئيساً للوزراء .كان النظام برلمانياً شارك فيه حزب الأمة الذي فاز بدوائر ولاية دارفور جميعها والحزب الإتحادي الديمقراطي عن شرق السودان والحزب الإسلامي عن دوائر الخريجين والمثقفين . مرة أخرى شارك الجيلي ممثلاً لحزبه في الحكومة الجديدة . أستقال بعدها من منصبه وفضل التركيز على التجارة وحركة المال .

بعد طلاقها عاشت مريم فترة سيئة تشبه حال البلاد . سخر منها أهل الحي وأتهموها بالجنون والعربدة. قالوا لها إن الفتى الدارفوري خدعها ولم يعد يحبها .فرحوا لخبر الطلاق . حزنت مريم لفراق إبنها وشعرت باليتم والعطش ، لم يبني لها أحمد محيط كما وعدها . تمزق قلبها وضاع حبها ، كانت تعرف إن أحمد لايزال يحبها لكنه عاش صراعاً اجتماعيا لم يكن يتحمله وعانى من تصدع الهوية بين المنطقة التي ينتمي لها وعادات القبائل العربية الصارمة . صار الجيلي يضربها إذا قصرت في خدمة البيت ، كان يعاملها بقسوة ويطلب منها أن تجد زوجاً ، لم يكن يحب كلمة مطلقة وشعر بالضيق

لتواجدها بهذه الوضعية الجديدة . تعاملها زينب بإحتقار ، ما عادت تلك الصديقة القديمة التى تحب صديقتها ، كانت تتهمها في قرارة نفسها بالوضع السئ الذي تحولت إليه حياتها ، وترى في وجهها الأحلام التي لم تتحقق والأمنيات البعيدة . أما سميرة فشاركت إبنتها الحزن والألم . كلما جلست معها لتناول القهوة بادلتها نظرات تخفي ورائها العتاب واللوم ، وتطلب منها ضرورة السرعة لتغيير حالها فوضعيتها كمطلقة لم تكن ترضي أحداً . كانت مريم تعرف إن الحل الوحيد سيكون عند الفكي عباس الذي يعرف تفاصيل جسدها كما يعرف مشكلتها من أحاديث أهل الحي .

صارت مريم تتقرب منه هرباً من جحيم المنزل . تشكي له حالها وتروي له قصة طلاقها التي يعرف تفاصيلها ، تحكي له عن حزنها على ولدها . كان الفكي لايزال يعمل بالخلوة ويدرس الطلاب القرآن الكريم ، لم يتغير حاله كثيراً عن الماضي لكن نجح في إحداث ثورة بحياة مريم حين أقترح عليها أن تتزوج من عوض .

لم يستطيع عوض ممارسة حياته بشكل طبيعي بعدما تحرش به الفكي عباس . اغتصبه كما فعل مع مريم . لم يتمكن من مواصلة الدراسة حيث كان يخاف من المعلمين ، يتخيل إنهم جميعاً سينهشون جسده كما فعل معلمه الأول . خرج للعمل في السوق منذ وقت

مبكر ، باع الخضار والفاكهة ثم أنتقل لبيع السمك واللحم ومختلف أنواع الطعام . لم يقرأ كتاباً واحداً في حياته ولايعرف دروب الثقافة ، بالكاد يجيد الكتابة والقراءة ، لم يحاول تطوير نفسه مثل أبناء جيله الذين سبقوه في مجال العلم . لم يتزوج خوفاً من افتضاح أمره فهو لا يقذف ماءً مثل بقية الرجال ، أصيب بعجز مبكر ولم يجد امرأة يصارحها بضعفه . كان يحلم بسيدة تشاركه الحب لكنه لم يجد من بين النساء من تبادله المشاعر لأنه لم يكن يجيد التعبير عن عواطفه . كانت مريم بالنسبة له حلم جميل لايمكن الوصول إليه . تمكن من بناء منزل صغير : حجرة واحدة ومرحاض ومطبخ وصالة لجلوس الضيوف . يتعاطف معه أهل الحي ويشفقون عليه لوحدته ، يدور في فلك الفكي عباس مثل مريم،لم ينقطع من زيارته ولا تكلم معه عن مصابه ، لكن الفكي حين تطلقت مريم وجد فيه الرجل المناسب للإقتران بها لأنه يعلم كل شئ عن حياته وملامح جسده .

لم يكن عوض بالمستوى المادي والاجتماعي الذي يؤهله للزواج من مريم ومع ذلك وافقت عليه الأسرة ، لم تعجبهم كلمة مطلقة فزوجوها لأول رجل طرق باب منزلهم. كان مثل الثورة في حياتها أحدثت تغيير على المستوى السياسي لكن مشاكل الفقر والفساد لم تحل . وجدت مريم نفسها مع رجل يقاسمها الفراش عند النوم فقط لكن لاوجود للحب وهذا ما فقدته بحياتها الجديدة . كان

يعلم ما فعله الفكي عباس بها وتحدث معها علانية ذات يوم لكنها لم ترد عليه وتركته يقاسي الوحدة ، قال :

– عندما مرضت بالحمى منذ زمن بعيد هل كان سبب ذلك أعمال الفكي عباس بجسدك ؟

اكتفت مريم بتحضير الطعام وترتيب شؤون البيت وغرقت في الروايات التي كان يحضرها لها نعمان والبؤس الذي يحيط بها .

أجتهد محجوب في تكوين ثروة على مدى سنوات طويلة وبعد فض الشراكة مع موسى تدهور حال التجارة. أنتقل للعيش في ولاية دارفور ليكون بجوار أعماله . تعرف هناك بسيدة دارفورية تدعى أمينة . امرأة ذات حجم هائل ، سمراء البشرة ، لها عينان صغيرتان وفم صغير ، تعمل بالحقول الشئ الذي اكسبها قوة بدنية كبيرة. أعجب بها وبالخصوص الطعام الدارفوري الذي كانت تعده . دق قلبه بالحب بعد سنوات من الموت ، أعادت له شبابه الضائع وبادلته العشق والحب. لم يعد يتذكر سميرة إلا حين يرى الجيلي أو عندما يرسل لها المال . كان يرغب بالزواج من أمينة وتكوين أسرة صغيرة وخطط للإنتقال إلى دارفور وامتلاك منزل هناك ، لكن ظل يخشى من غضب إبنه . تحدث معه ذات يوم بالموضوع وحدث ما كان يتوقعه . ثارت ثائرة الجيلي لفكرة زواج أبيه ، لكن بعد محاولات

عدة وافق وأصبح من داعمي هذه الخطوة . قال :

– لايجوز لي اعتراض طريقك ومخالفة ما جاء به الله ورسوله من حق الزواج مثنى وثلاث ورباع .

وهكذا أقام محجوب عرس كبير بولاية الفاشر حضره الأعيان ووجهاء القبائل ، كانت ليلة الدخلة على أمينة حديث البلد لأيام ، أحضر لها زفاف خاص من الخرطوم ودقت الطبول احتفالاً بالمناسبة ، اقام وليمة ضخمة ووزع الأكل على الفقراء . عام 1988م ضربت السيول والأمطار مختلف ولايات السودان . كانت أمطار غزيرة جاءت بفصل الخريف وقتلت الكثير من الأبقار والإبل والخراف . أصيبت الثروة الحيوانية بمقتل وخسر محجوب والجيلي رأس مالهم . ساد الجوع وهاجر السكان من الأقاليم والأرياف إلى المدن الكبرى ، نزح أهالي منطقة دارفور إلى المعسكرات ، إنها سنة المجاعة الكبرى .

تأثرت أموال العائلة وضاعت كلها ولولا البيت الذي يملكونه بحي الخرطوم 2 لتحولوا لطبقة فقيرة ، ضاع كل شئ : الثروة الحيوانية ، المال وعقل محجوب . لم يعد يفكر بوضوح ، كلامه غير مرتب ويهذي ، ينادي أمينة حين يرغب في قضاء أي شئ وهكذا علمت سميرة بأمر الزواج .لم تصدق إن الرجل تزوج عليها من سيدة

أخرى .غضبت وطردته من المنزل ذات ليل ، خاصمته وبكت بشدة . شعرت بأن المجاعة إنما ضربت قلبها لأنها فضحت زواج محجوب الذي عاد إلى مدينة الفاشر وحاول أن يبدأ من جديد ، ذهنه مضطرب ولاحديث له غير الحيوانات التي ماتت .تكفلت أمينة برعايته والإنفاق عليه بجانب عملها بالزراعة في الحقول . عاش بعدها سنوات قليلة ومات في صيف العام 1990م .

أفتتح عوض دكاناً صغيراً لبيع اللحوم والبيض والخبز وغيرها من المنتجات الخفيفة ، فرح بما حققه واعتبره انجازاً كبيراً لكن مريم غرقت في البؤس وما عادت تشاركه أفراحه القليلة لأنه لم يكن رجلاً كاملاً . الحقيقة إنها لم ترغب في ممارسة الجنس معه وفرحت لأنه لم يكن يشاركها الفراش لأنها كانت تبحث عن الحب ولم تجده. لم يكن يشاركها تفاصيل حياتها ولا يتحدث في الثقافة والكتب ، كان يكره السينما وعندما يذهب لحضورها يختار الأفلام الهندية الرخيصة ذات الحركة والسرعة ، لاتهمه القصة أو الحوار يريد أن يشاهد مشاهد جميلة وحسب . يغار من مريم لأنها متفوقة عليه في كل شئ فطلب منها التوقف عن التدريس والتفرغ لتدبير شؤون المنزل ، يمنعها من القراءة ويسئ في حديثه إلى أخوتها الجيلي ونعمان . يخبرها إنه تزوجها شفقة بعدما تركها أحمد واصبحت سيرتها على كل ألسنة أهل الحي . تحولت الحياة بينهما إلى جحيم لايطاق ومن ثم

طلقها ليبرهن على قوته وليخضعها لقراراته . كان يريد أن يراها امرأة منكسرة مثلما وجدها في المرة الأولى عندما شرح لـه الفكـي عبـاس حالتها والمأزق المجتمعي الذي تمر به . لكن مريم رفضت العـودة إليه حين طلب ذلك فأستمر في زيارتها محاولاً تغيير رأيها .

***

بعد فقدان الجيلي للمال والثروة الحيوانية وضياع عقل محجوب شعرت زينـب إنهـا خسـرت كـل شـئ . لم تنجـب الأبنـاء وضـربت المجاعة جميع وجوه حياتها . غضبت حـين تطلقـت مـريم وجـاءت للسكنى معهم . تقول لها كلما رأتها :

– لايوجد لدينا مال كافي لننفقه عليك . لم تعـودي امـرأة تصـلح لشئ ، تتطلقين من الرجال وتلعبين بهم مثل ورق الكوتشينة .

لم تنجح محاولات سميرة في اقناعها بـالعودة إلى زوجهـا . كـان عوض يأتي كل صباح لشرب القهوة معهم والتحدث مـع مـريم عـن أخطائه في حقها ، يقـول إنـه يشـعر بالنـدم وسيعوضـها عـن حياتهـا السابقة . كانت تعلم إنه يكذب . خاصمتها زينب وتعاركـت معهـا . كانت المعارك تحدث كل يوم عند زيارة عوض وذات يـوم مسـكت مريم سكين وحاولت ضرب صديقتها . لم يحدث شئ لكن المعارك اليومية لم تتوقف بل زادت حدتها ، إلى أن جاء يوم حاولت فيـه مـريم

قتل زينب لكن السكين طعن عوض من الخلف وأمتد ليصيب القلب من الجهة الأمامية ، نزف بشدة وسالت قطرات الدم في كل مكان وملئت أرضية المنزل ، لم تفلح محاولات نعمان والجيلي في اسعافه . مات قبل أن يصل إلى المستشفى ودفن بعدما عاينت الشرطة موقع الجريمة ونقلت الجثة إلى المشرحة لتحديد أسباب الوفاة . جاء في التقرير الطبي إن السبب طعنة اخترقت عضلة القلب وحدث نزيف سرعان ما أدى إلى الموت .

أصيبت مريم بصدمة من منظر الدم المتناثر هنا وهناك . اقتيدت بعدها إلى حراسة الخرطوم 2 ولم يزرها أي شخص بتلك الفترة .حوكمت الأسرة كلها على جريمة مريم وأتهم الناس زينب إنها وراء ما حدث . قالت بعض النسوة :

– عندما دخلت زينب إلى هذه العائلة تدهور حالها .

قالت لها سميرة :

– منذ لحظة زواجك من أبني والمصائب تنهال فوق رؤوسنا . أنتي ملعونة .

مكثت مريم ما يقارب الشهر في الحراسة لأن البلد حينها كانت تشهد ثورة 1989م التي جاءت بدولة الإنقاذ الوطني بقيادة الرئيس

السوداني عمر البشير الذي أطاح بحكومة السيد الصادق المهدي بإنقلاب عسكري .

طلبت مريم من الشرطي تحويلها للسجن أو مقابلة محامي فرد عليها قائلاً :

– البلد بحالة ثورة ونحن منسيون في هذه البقعة من التاريخ . من سيهتم لأمر قاتلة ؟ من سيأتي ليسأل عن حال الحراسات والسجون؟ والشعب كله يعيش تحت رحمة الرصاص .

لم تكن الحراسة مؤهلة للإستخدام البشري أكثر من ثلاثة أيام لأنها عبارة عن بلاط بدون مراتب للنوم عليها والمرحاض لم يكن يعمل . بكت مريم بشدة في تلك الليالي الطويلة وعلمت إنها فارقت أسرتها وحياتها القديمة . قضت الوقت في طرد البعوض والذباب الذي يملأ جوانب الحراسة . كان الطعام الذي يقدم لها بالكاد يكفي لتعيش على قيد الحياة ، كانت تأكل بقايا الحراس من الفول والعدس لتسد جوع بطنها . تعرضت للتحرش الجنسي من العساكر كلما طلبت ماء أو أكل . لم تكن تنام بالليل من البعوض الذي يمتص دمها وخوفاً من محاولات اعتداء جنسي . تعرضت لأستجواب طويل وأصيبت بالإرهاق والتعب . لم تكن تعلم ماذا تقول للشرطي الذي يستجوبها ؟ لأن الأسئلة كانت تنهال عليها دون ترك مساحة للراحة

فتجيب على كل عبارة بكلمة نعم . لم تفكر في الدفاع عن نفسها لأنها رأت مصيرها كله أمامها . تلوث عقلها من منظر الدم وكثرة الأسئلة .كانت تريد أن تتخلص من هذا الموقف بأي طريقة ممكنة . لاحقاً حكم عليها بالسجن سبع سنوات في بدايات العام 1990م . أوردت الصحف الخبر بشكل صغير لأنها كانت مشغولة بأخبار الحكومة الجديدة وتداعيات الإنقلاب . لكن أهل الحي عرفوا بما حدث فقاطعوا العائلة ، وخافوا من مقتل عوض . ظلت سيرة مريم هي حديثهم لفترة طويلة من الوقت . يلقون اللوم على عوض الذي تجرأ للزواج من فتاة من طبقة اجتماعية مختلفة وبعضهم يدين مريم ويتحدث عن الحقد الذي سكن قلبها بعدما تطلقت من الفتى الدارفوري وآخرين يقولون إنها أصيبت بلوثة في دماغها بعدما فقدت ولدها الوحيد . اصبح نعمان مثار سخريتهم لأن أخته قاتلة وفي السجن ، اصبحوا يتجنبون الحديث معه ويصمتون كلما مشى بجانبهم . قال له شخص من أهل الحي :

– لانريد أن نعرفك بعد اليوم الا يكفي أن أختك أصبحت رد سجون .

لم يجد نعمان من يدافع عنه وقبل أن يفكر في الرد على الرجل قال شخص آخر :

- أنت شيوعي كافر وأختك كافرة .

ثم توالت الاتهامات والعراك بالأيدي . أصابوه في رأسه بالحجارة ومزقوا ملابسه . اتهموه إنه يعمل لصالح الحكومة الجديدة وجزء من جهاز الأمن الذي يتلصص على حياتهم . نسى الناس المحبة القديمة والشوق الباذخ ورفعوا الخبر الذي اوردته الصحيفة أمام عينيه .

كان نعمان هو أكثر الناس حزناً لمصاب أخته . لم يصدق إنها قتلت وأخذ يقول :

- القتل ليس هو الخطيئة الكبرى وإنما الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي أدت إلى الحادثة . كيف ستعيش مريم سبع سنوات في السجن ؟ .

أخذ يحلل الواقعة من مختلف الجوانب الفكرية والفلسفية لكن العائلة طلبت منه أن يلتزم الصمت ولايذكر أسم مريم داخل المنزل. كبر حزنه بمرور الأيام فما عاد أحد يزورهم وأحتل الصمت المنزل وسكن فيه . عندما علم أصدقاء نعمان ورفاقة الشيوعيين بما وقع تحدثوا معه عن القضية والقوا اللوم على أخته . كانوا قساة ، قلوبهم كأنها صنعت من حجر ولم يهتموا لحزنه . كانوا يسخرون منه ويتابعون تفاصيل الحادثة من الجرائد . منعوه من الجلوس معهم

وممارسة الرسم بالأماكن العامة . قالوا عنه إنه خطر مثل أخته ويجب الحذر منه . لم يتكلموا معه عن الثقافة كما كانوا يفعلون في الماضي .تألم نعمان لتعامل الرفاق معه وزاد ألمه حين طلب الحزب التحقيق معه في قضية تافهة أثارها صديق عمره عثمان . خضع للتحقيق وكانت الرسالة الموجهة له تطلب منه تقديم استقالة . لم يفعل شيئاً ففصله الحزب بحجة عدم الالتزام الحزبي وعدم حضور اجتماعات الحزب التي لم يعد يدعى لها . كان عثمان هو أول من خانه وسعى جاهداً لفصله ونشر عنه إشاعات تقول إنه جاسوس يعمل لصالح الإسلاميين الجدد . اتسعت مساحات الحزن داخل قلبه ولم يجد من بين رفاقه من يشكو له . صار يشعر إنه غريب كما حكى لأستاذ علم الأحياء سعيد قائلاً :

– إنها المرة الأولى التي أشعر فيها بالغربة داخل وطني . شعور قاسي عندما يتحول الوطن كله لسجن كبير .

قال له أستاذ سعيد :

– تحمل الألم فالرفاق يخافون على سمعة الحزب أكثر من خوفهم على أنفسهم .

يجيبه نعمان :

– خانني الرفاق وفصلت من الحزب وأختي قاتلة والبلاد تحت احتلال جديد . ماذا أفعل ؟

ساعده الأستاذ سعيد بالتفكير وتهوين الأمر عليه . وصل في النهاية إلى قرار مصيري حين قال :

– سأسافر إلى المجهول . ولن أعود مجدداً إلى هذه البلاد التي نبذتني منها مثل الغريب .

شجع أستاذ سعيد الفكرة وكان يرى فيها بداية لعهد جديد . قال:

– ربما تنسيك الغربة أوجاعك . سافر فأن في السفر أكثر من سبع فوائد إنه حياة كاملة .

مع ذلك لم ينسى نعمان زيارتي لمزيد من الاستشارة ولأن قلبه كان متردد رغم إن عقله كان يدفعه للسفر . من ناحيتي شجعته وقرأت له مجتزأ من سفر أيوب :

– أَلَيْسَ جِهَادُ لِلإِنْسَانِ عَلَى الأَرْضِ ، وَكَأَيَّامِ الأَجِيرِ أَيَّامُهُ ؟ كَمَا يَتَشَوَّقُ الْعَبْدُ إِلَى الظِّلِّ ، وَكَمَا يَتَرَجَّى الأَجِيرُ أُجْرَتَهُ .

لكن نعمان سافر إلى نهاية العالم ولم يعد أبداً .

صيف العام 1991م قرر نعمان زيارة مريم في السجن .كانت المرة الأخيرة التي تراه فيها إلى حينموعد موتها بمصحة كوبر . أخذ

لها رواية مرتفعات وذرينغ لكن السجانات رفضن أن تستلمها لأنهن لم يفهموا ما تحتويه ووجدوها غريبة وبعيدة عن الايديولوجيا الإسلامية . سألت إحداهن وهي تقلب صفحات الكتاب :

– أين كلمة بسم الله الرحمن الرحيم ؟

لم يرد نعمان ولا مريم .

أكتفى بالحديث معها وأخبرها عن نيته في السفر . قاطعتها الأسرة منذ حادثة القتل لكن هذه الزيارة أدخلت الفرح إلى قلبها لمدة من الزمن ، ظلت تعتقد بقية السنوات اللاحقة إنه سيأتي لزيارتها مرة أخرى ولن يطول غيابه لكن نعمان ذهب ولم يعد إلى السودان أبداً . انقطعت أخباره . يقول البعض إنه ذهب إلى ليبيا ومنها عبر إلى دول أوربا والبعض الآخر يقول إنه موجود في دولة خليجية . وبين هذا وذاك ضاع نعمان بين الدول وفي زحمة السنوات . لا أحد يعرف له عنوان أو رقم هاتف إنه بحكم المفقودين حسب السجلات الرسمية وكما روى شهود عيان . هل مات ؟ هل عاد إلى السودان ؟ هل غير أسمه وملامحه ؟ لا أحد يعرف الحقيقة .

اختفى نعمان للأبد .

***

بعد الإنقلاب العسكري تسلم الجيلي منصب هام في الحكومة الإسلامية الجديدة لأن حزبه سيطر على مقاليد الحكم وتحالف مع الجيش .كان عليه التركيز بقضايا كبيرة فالحرب بالجنوب بدأت تشتعل ، البلاد كلها كانت في حالة حرب مع أحزاب المعارضة بقيادة التجمع الوطني ومرت السنوات الأولى بعد الثورة ثقيلة على القلوب . كان الجيلي يعد الشباب للحرب ويدربهم من الناحية الفكرية على ايديولوجيا حزبه ويرسلهم بعد ذلك إلى غابات الجنوب وإلى مصيرهم الغامض ، يعود بعضهم جرحى وآخرين موتى دون أن يشعر بالندم ولاتحركه دموع أهلهم وأحبائهم . لم يتحدث عن مريم مطلقاً وتعامل معها وكأنها ميتة لكنها مع ذلك ظلت حية في خياله ويزوره طيفها كل ليلة ، عانى بعد جريمتها من اقوال الناس وغضب رجال القبيلة ورؤية نعمان وهو يسقط من انظار الناس وصراخه الدائم معهم ودوامة اليأس التي غرق بها .

أما زينب فتعبت منسنوات الجوع والحرب والثورة . لم تتحدث عن حادثة قتل عوض كما أتفقت مع العائلة ولم تعد تخرج من المنزل إلا نادراً . تداوي سميرة المريضة وتشرف على ترتيب البيت واستقبال ضيوف زوجها الغرباء . بتلك الفترة نشط الجيلي مع الحزب الإسلامي وكان يستقبل بمنزله رجال من جنسيات مختلفة يأتون من الشيشان والصومال وغيرها من البلاد بغرض التدريب

والاختباء من أنظار البوليس والشرطة العالمية ، يعقد معهم الاجتماعات ويتحدث عن أهمية الخطاب الديني في توجيه المجاهدين حول العالم . لكن شئ ما في نفسه كان يؤلمه ويسبب له الحزن : إنها مريم .

لم يتمكن من نسيانها رغم تظاهره بذلك ، كان يشعر وكأن عار الجريمة يطارده . أصبحت تصرفاته غريبة وأشد عنفاً . يرى في الجهاد وحرب الجنوب وسيلة للخلاص . كلما أعاد التلفزيون بث الأناشيد الجهادية تمايل طرباً معها وعندما تعرض صور القتلى والشهداء كان يفخر بمعرفة بعضهم ويطالب بصوت عالي أن يلحق بهم إلى الجنة .

لم يجرؤ أحد من أهالي الحي على الحديث مع الجيلي عن حادثة مريم . صار يرهبهم ويطلق رجاله لإصطياد الشباب الصغار ويرسلهم إلى الحرب ، كان ينتقم منهم لأنهم ألقوا عليه بزمن مضى الإشاعات وقالوا في أخته وأمه سميرة ما لم يقله مالك في الخمر . كان يعاقبهم على غياب نعمان والتصرفات التي اتبعوها معه ودفعته إلى الهرب بعيداً . تحول الجيلي إلى شبح يطاردهم في أحلامهم ليلاً وجلاد يصطاد أولادهم بساعات النهار .

تمكن من بناء ثروة صغيرة خاصة بعد تسلم حزبه للسلطة . لم

يكن فاسداً كما يشاع وإنما هو رجل مجتهد ويعمل بجد ليل نهار .حاول تعويض الخسارة التى تعرض لها أيام المجاعة لكن لم يتمكن من تكوين ثروة تعادل ما ضاع في الماضي . منتصف عام 1994م قرر أن يذهب للحرب في الجنوب ، دخل معسكر للتدريب على فنون القتال وتعلم الضرب بالأسلحة المتنوعة وخاصة سلاح الدوشكا الروسي . حارب بشجاعة وكان يظهر على شاشة التلفزيون متحدثاً عن الانتصارات في المعارك .

ظهر الجيلي بصورة البطل القومي بأذهان أهل الحي وسرعان ما نسوا ما فعله بهم ودموعهم التي سالت على فراق أبنائهم . عادوا لزيارة العائلة وعادت النساء للتواصل مع سميرة التي غلبها الحزن على فراق أبنائها . لكن بطولات الجيلي أعادت لها ولزينب شئ من الألق ، والثروة المالية التي جمعها ساعدتهم في العيش بطريقة كريمة ولائقة . بعد عام واحد جاء خبر مقتل الجيلي حيث اصيب برصاص في أجزاء مختلفة من جسده أدت إلى موته . شيع ودفن كبطل حقيقي وأقيم له عرس شهيد وهو ميت . تكفلت الدولة بإعطاء سميرة مبلغ شهري وعاشت هي بذاكرة نصف ممتلئة لأن الجيلي كان بالنسبة للناس لايزال بطل . لم تفارقها زينب ، لاتزال تعيش معها في المنزل وتسهر على علاجها .كانت زينب تقضي الليالي الطويلة وهي تتحسر على ما فات من عمرها وشبابها وتبكي زوجها الراحل وتندب حظها

الذي تركها بدون أولاد أو زوج . قالت سميرة عن تلك الفترة :

– لولا السمعة الطيبة التي تركها الجيلي في نفوس أهل الحي وكبار رجال الدولة لهلكنا ونحن أحياء . كانوا سيقتلوننا بألسنتهم .

فشلت العائلة في الحصول على عنوان لنعمان وقامت زينب بزيارة إلى السجن على أمل أن تجد عند مريم معلومات . لم تتحدث معها وكان كل شيء في هيئة مريم مختلف : وجهها وصوتها . لم تتفاعل مع حديث صديقتها والأخبار التي نقلتها عن سميرة والجيلي، اكتفت بالسكوت وكانت تنظر لها بصمت . ظهرت الحقيقة من خلال عينيها وسألتها عن ماهية الصداقة التي جمعت بينهما ؟ لم ترد زينب وتحدثت عن الآمال العريضة التي كانت تسكن مخيلتها عند زواجها من الجيلي وحدثتها كيف تحطم كل شيء عندما اقتربت من العائلة الملعونة كما تسميها . لم تعد لزيارتها لأنها لم تتحصل على معلومة مفيدة منها عن نعمان .

قامت سميرة بزيارتها عندما تم تحويلها إلى مصحة كوبر للأمراض النفسية والعقلية وهناك لم تفهم كلمة واحدة من حديث أبنتها . قالت ودموع خفيفة تبلل وجهها :

– ليتني لم أراك بهذا الشكل يا مريم . حرقتي قلبي عليك .

مصحة كوبر هي سجن تابع لشرطة السجون ، مكان صغير به

عنبرين فقط ، واحد تقيم فيه النساء اللآتي لا يعانون من أمراض مستعصية ومدة الحكم عليهم قليلة والآخر يسمى عنبر البول تقيم فيه المحكومات بفترات طويلة وأغلب نزيلاته مصابات بتبول لاإرادي وفيه كانت تقيم مريم . يوجد بالمصحة زنازين تشبة الموجودة في السجن وهي عبارة عن أرض حجرية بها مرحاض لايعمل تحبس فيها المريضة ولاتشرب الماء إلا عند تناول الدواء وتخرج من الزنزانة كل صباح لتغتسل ثم تعود إليها من جديد ، جربت مريم زنازين مصحة كوبر لأكثر من مرة ولم تكن تهتم بهذا النوع من العلاج . ترتدي ملابس بيتية عادية وتأكل الفول كما في السجن لكن في المصحة لم تكن تتعرض للضرب المبرح . يتغير الأطباء باستمرار في المصحة وكل واحد منهم يكتب لها دواء مختلف ، جربت كل الأدوية لكنها ظلت على حالها . عندما دخلت للمصحة كانت تملك المقدرة على الكلام والاعتناء بنفسها وقضاء حاجتها لوحدها ثم بدأت تتلاشى . بعد مرور فترة من الزمن فقدت مقدرتها على النطق بكلام مفيد ، كانت تتحدث كثيراً بكلام غير مفهوم وتحاور أشخاص ليس لهم وجود وتضحك معهم ثم راحت تتبول على ملابسها مثل بقية النزيلات ولا تهتم بنفسها ، تسير حافية وتتنقل في حوش المصحة بدون هدف ، ضاع عقلها نهائياً وعندما أوشكت على الموت قالت بصوت واضح ومفهوم :

- أين ولدي ؟

كانت مريم حينها إذا ذكر أسم فرد من عائلتها تضحك وتذهب بخيالها بعيداً ولا أحد يعلم فيما كانت تفكر ؟ ملابسها رثة ورسم الزمن خطوطاً عريضة على وجهها ، تغيرت ملامحها كثيراً في السجن وتحول شعرها كله للون الأبيض ، شاخت بسرعة وتقوس ظهرها ولم يفلح العلاج الذي تلقته في المصحة من تحسين حالتها . ظلت سميرة بعد زيارتها الأولى تعود إليها بين حين وآخر لكنها ماتت بعد سنوات من تواجدها في المصحة وذكر في التقرير إنها أصيبت بنوبة قلبية مفاجئة .

ماتت مريم بنت محجوب ودفنت الجنازة ذات ليل تحت حراسة الشرطة .

***

عندما زارني نعمان طلب مني زيارة مريم والاطمئنان عليها ومن يومها لم أتوقف عن زيارتها وتفقد أحوالها . كانت تحكي لي عن السجن وحياتها الجديدة . قالت لنزيلة :

- ماذا يريد السجن ؟

أجابتها :

– الهدف من السجن هو تحطيم الإرادة . وهدر كرامة السجين إلى نهاية حياته .

ذات يوم زارهم مسؤول رفيع المستويوقال البعض إنه رئيس الدولة ، بدين وصاحب كرش كبيرة و يتنفس من فمه ، يضع عطراً قوي ونفاذ ويرتدي ملابس نظيفة وغالية الثمن. تفقد عنابر السجن وكان يبدو سعيداً على الرغم من أن الحال كان يغني عن السؤال ، وصفت له السجانات حال السجن وكأنه جبال الهيملايا . قالت سجانة :

– كل شئ على مايرام . الأحوال هادئة والسجينات سعداء بالخدمات المتوفرة ورعاية الدولة . إنه لم يعد سجناً بل داراً للتائبات إلى الله .

تجول المسؤول بين العنابر وكان ينظر برضى إلى حال السجن .لم تتمكن مريم من فهم كيفية عمل عقول السجانات ولكن المؤكد إنهن لا يقدسن شئ في الحياة إلا حذاء أقدامهن . لم تهتم بهذا المسؤول مثل حالة بقية السجينات ، فقط تصنعوا الفرح والسعادة حتى لايقع عليهن عقاب . ومن جانبه لم يسأل المسؤول السجينات عن حالهن ولم يحفظ وجوههن أو حتى ينظر إليها . لم يكلف نفسه عناء السؤال : ماذا الذي تخبرك به هذه الوجوه ؟ جمع المسؤول

السجينات وخطب فيهن بكلام كثير عن شرع الله وتنفيذ وصاياه في الدنيا وطلب منهن أن يشكرن الرب لأنهن موجودات في سجن فيه كل شروط الراحة والرفاهية وختم خطابه قائلاً :

– سيكون أسم السجن من اليوم دار التائبات لأن السجينات يعيشون في دار أشبه بالفنادق الراقية .

اليوم التالي تم تحويل لافتة السجن الكبيرة ووضع أسم التائبات فيها .

نظرت إليها المسجونات بدون تعليق .

يأتي إلى السجن كثير من المتبرعين بالملابس والطعام لكنهم لم يسألوا أين تذهب تبرعاتهم ولم يسألوا السجينات عن حالهن . تقول مريم واصفة حالهم :

– لم أجد أشخاصاً قساة القلب مثل دعاة الشفقة وبأسمها يتبرعون لنا دون أن يعاملونا كبشر . إنهم لا يعرفون ماذا ينقصنا ؟ بل بالكاد ينظرون إلى أعيننا . يسلبون كرامتنا بدعوى الشفقة والرحمة لكن التبرع غلاف أخلاقي يقلب معايير الخير والشر حسب مصلحته .

كانت تتلقى أجزاء من الطعام الذي يتم التبرع به . لكن

المتبرعين أنفسهم لم يكلفوا أنفسهم عناء النظر في وجوه السجينات . لايعرفون عن حالهم شئ .قالت مريم عنهم :

– أجدهم متواطئون مع السلطة ويحرسون أفكارها. ما هو مفهوم التبرع ؟ لايقدمون لنا مساعدة حقيقية وعندما تقف أمامهم سجينة فأن عينيها تكون دائماً ناحية الأسفل ، تشعر بالخجل والعار من هذا التبرع السافر الذي يجرح الكرامة . كل شئ في السجن مخطط له والغرض منه دائماً هو تعليم السجين إنه لم يعد إنسان .

يتم تمويل السجن من أموال المتبرعين ومال قليل تنفقه وزارة الداخلية وديوان الزكاة . لكن السجن يعتمد على التبرعات لذلك هو متهالك وقديم .

كل عام تسجل لجنة من حقوق الإنسان زيارة إلى السجن لكنها كانت تابعة للدولة وليست لجنة مستقلة من دعاة الحقوق المعروفين . يتجولون في أروقة السجن مثل شخص يذهب في نزهة وهم يرتدون الملابس النظيفة والأنيقة ويغطون أنوفهم بالمناديل الورقية حتى لا يلتقطوا عدوى من النزيلات ولأن رائحة السجن كانت كريهة وبها عفونة . يجلسون مع السجينات ولكن الكلام الذي يقال يكون ايجابياً دائماً حتى لاتغضب ادارة السجن . قالت نزيلة :

– كل شئ هنا جيد وجميل نشعر وكأننا في المنزل .

وحدث ذات مرة أن قالت نزيلة الحقيقة في وجوه لجنة حقوق الإنسان :

– المفروض أن يسع هذا المكان لـ 500 نزيلة لكن يوجد ما يفوق الـ1000 امرأة ينامون فوق بعضهن وعلى الأرض والتي هي عبارة عن تراب وليس بلاط . مجاري الصرف الصحي طافحة ونحن نقضي حاجتنا فوقها ونتلوث بالماء القذر . تعاملنا السجانات بأسلوب فظ وقاسي لأنهن يعتقدن إنها الطريقة الوحيدة لفرض هيبة الدولة وخضوع السجينة ، نتعرض للضرب بشكل يومي ونسمع الشتائم في كل لحظة . نعيش في عنابر لايوجد بها مراوح ونضطر لتبليل أجسادنا بالماء هرباً من حرارة الشمس ونعاني في الحصول على صابون وقطن وملابس تقينا شر البرد .

استمعت لها اللجنة وعلى وجوه أعضائها ابتسامة غامضة وقال شخص من الأعضاء مختصراً الشكوى والوقت :

– ربنا يصلح الحال .

ورد عضو آخر :

– يجب أن تحمدي الله على توفير النعم .

بعد ذهاب اللجنة تعرضت هذه النزيلة للحبس الإنفرادي نتيجة

كلامها وإلى عذاب شديد ومن يومها إذا جاءت لجنة لحقوق الإنسان كانت النزيلات يلتزمن الصمت مثل صمت أهل المقابر .

كانت مريم تتواجد في عنبر المحكومين بالمؤبد ويسمح لهم بالإختلاط مع بقية المسجونات وهذا شئ أتاح لها مساحة من الحرية .

كانت تعتقد إني أعرف عنوان نعمان كما سبق وأعتقدت العائلة . كتبت له الرسائل الطويلة . قالت في رسالة :

– أخي العزيز نعمان .. أتمنى أن تعود الأيام الماضية وأمد يدي للسلام عليك فتبادلني الضحك والإبتسامات . أنت حبيبي دائماً . أنت الوحيد الذي أتمنى أن ألقاك بدون عتاب أو ملامة ونعيد سوياً ذكرى الأيام الجميلة حين كنت تهديني الروايات والقصص . أريد أن أمشي معك في دروب العشق والهوى ونحكي الأخبار تحت قطرات المطر في الخريف . هل تذكر حين كنت أحدثك عن الأبل البيضاء التي طارت ؟ لا أريد غيرك لأن الدنيا مظلمة بدونك والسجن ضيق . والبلاد لم تعد بذلك الجمال والألق الذي نعرفه . كل شئ تغير بعد رحيلك .

سلمني صامويل بيتر العديد من الرسائل المكتوبة بخط اليد ، قال إن والدتي لم تقتنع بعدم معرفته لعنوان نعمان واستمرت بالكتابة

. حدثني عنها عندما وصلها خبر مقتل الجيلي من ادارة السجن ، حزنت لأنها سببت له جرحاً عميقاً حين قتلت زوجها السابق عوض ولم تتمكن من المشاركة في دفن أخيها وتشييع جنازته لأن ادارة السجن رفضت منحها تصريح بالخروج .اكتفت بالحزن وذكريات الماضي .

أنقضت ليالي وأيام وصامويل بيتر يحدثني عن قصة أمي . روى لي تفاصيل حياتها في السجن وكيف قضت أيامها ؟ قال :

– يمر الوقت في السجن ببطء . ساعة واحدة تعادل عام كامل وهذا هو المقصود من الفراغ الطويل ، إنه عقاب مقصود وبرنامج روتيني يهدف لتحطيم الإنسانية داخل نفس السجين . لايسمح في السجن بأوقات للقراءة الحرة أو المرح لأنها تعني إن الأمل موجود . والأمل والسجن هم أعداء دائماً . يزرع السجن اليأس في النفوس ويحطم الإنسان بدعوى الإصلاح والتهذيب ، كلها دعاوى كاذبة ومصطلحات ذات لون لافت تخفي الحقيقة القاسية ورائها .

رافقني صامويل بيتر إلى منزل والدتي وفي الطريق وجدنا رجل يقرأ صحيفة تعارك في الماضي مع خالي نعمان وضربه بالحجارة حتى سال منه الدم ، اقترب منه صامويل وقال غاضباً :

– ترك لك نعمان البلد كلها هل أنت مستريح البال الآن ؟

قال الرجل :

– أتمنى أن تغادرها أنت أيضاً أيها الجنوبي القذر .

أوشك الرجلان على قتال بعضهما عندما تدخلت في القضية وختمتها بمقولة حفظتها من أصدقائي اليساريين في فرنسا ، قلت :

– نعمان أكثر إيماناً منكم يا أهل الصدقة لأنه كان يؤمن أن الدين لباري الدين وفوق الأرض صراع الطبقة .

لم يفهم الرجل حديثي وعاد لقراءة الصحيفة وواصلت مع صامويل بيتر طريقنا ناحية منزل أمي . هناك وجدت البيت فارغاً وهادئ وكأن سكانه غير موجودين . صور الجيلي ونعمان ومحجوب تزين الجدران . خرجت علينا زينب بعد دقائق من الانتظار . بدت امرأة عجوز ، علامات الزمن رسمت خطوطاً رفيعة على وجهها وشعرها تحول للأبيض! كانت خصلات من اللون الأبيض والأسود والأحمر نتيجة الحناء التي تصبغ بها شعرها ، رائحة جسدها لاتزال جميلة مثلما وجدها الجيلي في المرة الأولى ، نحيلة بفعل مرض السكري وأمراض التقدم في العمر. جلست وتحدثت عن أمي بكل خير . روت ذكريات قديمة جمعتهم أيام معهد بخت الرضا حينما كانوا شباباً ، ترحمت عليها وعادت للحديث عن شخصية عوض . قالت إنه لم يكن بالمستوى الثقافي والاجتماعي

المناسب لأمي وإن حادثة القتل كلها لم تكن مقصودة لكن الشيطان دخل بينهم وفرق بين الأصدقاء . سألت سميرة عن والدي أحمد فأخبرتها إنه مات . قالت بهدوء :

- كان رجل جيد .

لم تعد سميرة تقوى على النهوض من الفراش ، أكل الزمن من لحمها وأمتص دمها . سيدة عجوز لا تقدر على التنفس ، لكن ذاكرتها تعمل بشكل جيد . تذكرت صامويل بيتر وسألته عن أخبار نعمان فأجابها بأنه بخير ويأمل أن يتحصل على عنوان له قريباً . لم أتحدث معهم كثيراً كنت ملتزماً الصمت أغلب الوقت . طلبت منهم صورة لأمي واللوحة التي رسمها خالي نعمان . أحضرت زينب صورة قديمة ذات تشققات من المنتصف لسيدة جميلة ترتدي الثوب السوداني وتحدق مباشرة بعين الكاميرا . أخذت الصورة وودعتهم سريعاً ، ذهبت بعدها برفقة صامويل بيتر لزيارة قبرها ، قرأت على روحها آيات من القرآن الكريم وغرست ريحان على جوانب القبر وسقيته بالماء البارد .

كانت صورة أمي تضحك على الرغم من الألم وسنوات السجن والمصحة . صنعت لها برواز من خشب مطلي بماء الذهب وحفظت اللوحة بمكان آمن . هي الصورة الوحيدة التي أخذتها من مدينة

الخرطوم . وعدت صامويل بيتر بتكرار الزيارة ووعدني بأنه إذا عرف شيئاً عن خالي نعمان فأنه سيخبرني. سافرت بعدها عائداً إلى مدينة باريس وصورة أمي لاتزال مسجونة في حقيبة السفر بانتظار أن تعلق على الجدار وتتنفس هواء الحرية .

الفهرس

الإهداء 3

أخبار الحريق 7

أنفاس ثقيلة 51

نشيد الأفاعي 109